القسم الثاني

الأدبان السوفييتي والعربي

من نهاية الثلاثينات وحتى أواسط الخمسينات

obeikandl.com

obeikandl.com

دور ميخائيل شولوخوف وليونيد ليونوف في تطوير مدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب السوفييتي

مراحل الأدب السوفييتي:

إن الأدب الروسي ـ السوفييتي الجديد، الذي خطت ملامحه الأولى رواية «الأم» وغيرها من نتاجات الكاتب البروليتاري مكسيم غوركي، قد أصبح يُطلق عليه، بعد انعقاد المؤتمر الأول لاتحاد الكتاب السوفييت 1934 اسم أدب الواقعية الاشتراكية، ولقد مَرَّ الأدب السوفييتي خلال تطوره بثلاث مراحل أساسية، جارت مقتضيات ومهام المراحل التاريخية الهامة لتطور ثورة أكتوبر الاشتراكية، وعكست نضال البروليتاريا السوفييتية من أجل بناء المجتمع الجديد على أسس علمية، فالمرحلة الأولى من مراحل تكون الأدب السوفييتي الحديث كانت مرحلة نضال الطبقة العاملة للقضاء على نظام الاستبداد والظلم والعبودية، وإقامة دولة اشتراكية علمية تقوم على مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا من أجل إقامة العدل وإحقاق المساواة بين جميع أفراد المجتمع، وتنتهي هذه المرحلة بانتهاء الحرب الأهلية 1922 وانتصار الثورة ـ الاشتراكية في جميع أنحاء روسيا.

وتبدأ المرحلة الثانية في تطور أدب الواقعية الاشتراكية مع ظهور رواية غلادكوف «الاسمنت» 1925، والتي تلاها الكثير من النتاجات للكتاب السوفييت الآخرين أمثال ليونوف، شولوخوف وغيرهما من الذين سجلوا صفحة جديدة في تاريخ تطور الأدب النضالي، الذي رافق تطور وبناء العالم من جديد وعلى أسس ثورية وعلمية، وخاصة بعد ذلك الانعطاف الثوري الهام الذي أحدثته ثورة اكتوبر، ولم تبق أهمية هذه النتاجات الأدبية محصورة ضمن نطاق الاتحاد

السوفييتي، بل انعكس إشعاعها على جميع شعوب العالم بما فيها شعوب الشرق.

بعد انتصار الثورة الاشتراكية، وتجسيد منجزاتها في الحياة العملية، وفي جميع مجالات الحياة، كان على الأدب أن يرافق تطور المجتمع، بل كان عليه أن يكون في مُقدمة النَّجاحات الاقتصادية والاجتماعية، ولذلك تعاظمت مهام الأدب السوفييتي في المرحلة الانتقالية، بين مرحلة وأخرى من تطور الاشتراكية حتى أعلى مراحلها، وكان على الأدب السوفييتي أن يأخذ بعين الاعتبار المرحلة الأخيرة من بناء الاشتراكية، من أجل تمتين وحدة جميع الشعوب السوفييتية في أسرة واحدة، في هذه الظروف بالذات كان على الفن والأدب ووسائل الثقافة الأخرى أن تلعب دوراً هاماً في تربية الإنسان الجديد من الناحية الروحية والأخلاقية بما يتطابق مع متطلبات وضرورات الاشتراكية المتطورة.

غوركي وميخائيل شولوخوف:

وفي الوقت الذي نبين فيه سمات نتاجات مكسيم غوركي وأهميتها، لا بد لنا أن نشير إلى الدور الكبير، الذي لعبته نتاجات الكاتب السوفييتي المعروف ميخائيل شولوخوف، ونرى هذا ضرورياً للغاية لأن هذين الكاتبين يكملان بنتاجهما أحدهما الآخر، والشيء الأساسي، الذي يوحد بين نتاجيهما هو، أن كلاً من غوركي وشولوخوف قد عكس تطور المجتمع والأدب على حدٍّ سواء بكل ما فيهما من تعقيد وصعوبة البحث، عن طريق بناء الاشتراكية وتأسيس أدب الواقعية الاشتراكية وتعميمه، وفي هذا الوقت بالذات تابع ميخائيل شولوخوف مذهب الواقعية، الذي أسسه غوركي، مكملاً إياه بملامح وميزات جديدة، ومطوراً له حسب متطلبات الثورة الاشتراكية، وتبدو صورة التكامل بين الكاتبين متكاملة لدرجة أن ميخائيل شولوخوف قد تابع بنتاجه رواية

مكسيم غوركي «حياة كليم سامغين» التي لم يكملها الكاتب في حياته.
وإذا كان مكسيم غوركي قد وضع أساس مذهب الواقعية الاشتراكية بروايته «الأم» فإن شولوخوف قد طور هذا الأدب برواية «الدون الهادي» في مرحلة البناء الاشتراكي، وتطور المجتمع السوفييتي خلال السنوات الأولى للثورة الاشتراكية بشكلٍ مُلاحظ وانعكست تلك التغيرات في رواية شولوخوف «والأرض البكر حرثناها» إذ صور شولوخوف المرحلة الانتقالية في حياة الفلاحين، وتبدل الملكية الخاصة القائمة على مبدأ الاستغلال والتفاوت بالملكية الجماعية القائمة على مبادئ التعاونيات الزراعية المعروفة بالسوفخوزات والكولخوزات، التي يسود فيها كما في جميع مجالات الحياة قانون (من كل حسب جهده، ولكل حسب عمله).
وإذا كان غوركي في نتاجاته التي صدرت قبل الثورة هي التركيز على عكس النضال من أجل قيام الثورة الاشتراكية، فإن شولوخوف عكس الحياة بكل ما فيها من معضلاتٍ جديدة تعترض طريق التطبيق الاشتراكي بعد الثورة، وبما يتناسب مع المهام الثورية الجديدة، وهذا ما يتضح من خلال تصوير البطولة والفداء خلال الحرب الأهلية، ثم خلال نشر التعاونيات وتطبيق القرارات الاشتراكية، ثم إحداث الحرب العالمية الثانية والنضال الدامي ضد المعتدين الفاشيست.
وبكلمة، إن ميخائيل شولوخوف يعكس اللحظات الحاسمة والهامة من الناحية التاريخية في تطور المجتمع السوفييتي: «الدون الهادئ» يعكس فترة 1912 ـ 1922 ويعكس من خلال إحداث هذه الرواية الملحمية الهائلة إحداث ثورة أكتوبر الاشتراكية والحرب الأهلية، وفي «أقاصيص الدون» نجده يصور القرية الروسية بكل ما فيها من مشكلاتٍ اجتماعيةٍ في بداية العشرينات من القرن العشرين، أما في «الأرض البكر حرثناها»، فهو يعكس السنوات الحاسمة في حياة الفلاحين في مرحلة التنظيم التعاوني الزراعي، فيما تعكس نتاجات «هم

دافعوا عن وطنهم»، «مصير إنسان» بعض أحداث الحرب العالمية الثانية ومعاناة الإنسان المواطن السوفييتي في النضال ضد المحتلين الفاشيست، ولقد أشار الكاتب ماركوف إلى أهمية نتاج ميخائيل شولوخوف إذ قال: «إننا على حق عندما نطلق على شولوخوف لقب «مؤرخ الحياة السوفييتية»، لأنه لا توجد أية ظاهرة كانت، أو أي حدث يحدد مسيرة التطور لمجتمعنا، إلا وترك شولوخوف عليها لمساته الأدبية الدقيقة والرائعة، إننا على حق عندما نسمي شولوخوف باحث عصرنا «لأنه يصعب أن نسمي أياً كان من الكتاب بهذا الاسم، فشولوخوف يمتاز بالنظرة الفنية الثاقبة المعتمدة على العالم الروحي الفني، والمعرفة الواسعة للإنسان، ولديه الإمكانية الكبرى في عكس الجهود الحقيقية للتحول الثوري والقضاء على النظم القديمة البالية[85]».

إذا ألقينا نظرةً على تاريخ ثقافات الشعوب في العصور الغابرة فإننا نلاحظ أن أدب كل شعب من الشعوب يملك ذروة، يصنعها كاتب عبقري لعب دوراً حاسماً في ازدهار أدب شعبه، ففي الأدب الروسي نجد أن ليف تولستوي هو من صنع هذه القمة أما في الأدب السوفييتي فكان مكسيم غوركي، ومن بعده شغل هذا المكان ميخائيل شولوخوف الذي استفاد من الأدب الروسي والسوفييتي ليبدع نتاجات أدبية يكتب لها الخلود في مكتبة الأدب العالمي، وأصبحت نتاجاته معروفة ليس على نطاق الاتحاد السوفييتي وحسب، بل في جميع بلدان العالم كإحدى النتاجات الأدبية الخالدة في تاريخ الأدب التحرري. ومن خلال نتاجات شولوخوف يستشفُّ القارئ النزعة الوطنية الحقَّة في كل كلمة كتبها، وجميع نتاجاته مشحونة بقوة الأفكار والمثل والأخلاق الثورية للشعب الروسي صاحب التقاليد الثورية العريقة، ولقد أطلق النقاد على ميخائيل شولوخوف لقب «الكاتب الشعبي» لقربه من الشعب وقضاياه، وأصبح هذا اللقب مرافقاً لاسمه ومعترفاً به من قبل الأوساط الأدبية السوفييتية والعالمية.

---

[85] ماركوف، الجريدة الأدبية، 28 أيار 1975.

ويرى الكاتب أن مسألة اختيار الأبطال لنتاجاته والمواضيع الحياتية يجب أن تنسجم مع قضايا الملايين من جماهير شعبه، وبني البشر عامَّةً، ولقد أجاد شولوخوف الغوص في أعماق النفس البشرية، والطبائع الفريدة من نوعها لشخصيات نتاجاته، وخاصَّةً بالنسبة لأولئك الأفراد من العمال والفلاحين، الذين يقومون بقسطهم في البناء الاشتراكي.

أما ما يخصُّ لغة نتاجات شولوخوف فهي تنسجم مع أمزجةِ الكثيرِ من القراء لأنها ذات صيغة شعبية سلسة، وبكلمة: إن شولوخوف عمل كل ما بوسعه ليكون مصيره كإنسان وكاتب منسجماً كلياً مع مصير شعبه، وكتب في هذا المجال يقول: «إن شعبي الحبيب قد سار على طريقٍ شائكةٍ، طريق شقت لأول مرَّةٍ في تاريخ الإنسانية، لقد كانت طريق الفاتحين الجدد، طلائع الحياة. لذا أدركت وأدرك مُهمتي كَكاتب، وكل ما كتبته وما سأكتبه، كان وسيكون في خدمة الشَّعب العامل، الشَّعب الباني، الشَّعب البطل... أُريدُ أن تساعد كتبي الناس، أن يصبحوا أفضل من قبل، أن يصبحوا ذوي نفوس نقية، وأنظف من قبل، إنني أرغب في أن أبعث الحب في الإنسان، وأزرع الأمل في نفسه ليتابع النضال من أجل المبادئ الإنسانية وتقدم البشرية[86]».

وفي عام 1928 ساهم الكاتب سيرافيموتش مساهمةً فعالةً في تقرير مصير الكاتب شولوخوف الشاب، فكتب معلِّقاً في صحيفة البرافدا: «من غير الصحيح نهائياً، أن نقول بأن شخصيات شولوخوف مرسومةً، وليست مصورةً، إنَّ هذه الشخصيات ليست مجرد وجوه رسمت على الورق، ولكنهم أناس حقيقيون خرجوا من بين الجماهير، ولكل منهم أنفه المرفوع وتجعيدات وجهه ويديه، ولكل منهم عيناه الثاقبتان المحدقتان، ولكل لغته ولهجته المحلية، كل واحد يمشي على طريقته الخاصة، ويحرك رأسه كما يطيب له، ولكل ابتسامته الهادئة وضحكه العالي، وكل منهم يكره على طريقته الخاصة،

---

[86] شولوخوف م. بأمر من أعماقي، موسكو، دار الحرس الفتي 1970، ص315.

obeikandi.com

ويحب بلا حدود، وفي كل واحد توجد بعض الخبايا السلبية تتكشف عنده بانفرادية ذاتية...

إن هذه العبقرية النادرة في تصوير العالم الداخلي والخارجي للفرد، وتكوين الوجه الفريد من نوعه، والبناء الروحي الذي لا يتكرر نهائياً لدى شخصيةٍ ما، وما إلى ذلك، هي القدرة الإبداعية، التي جعلت شولوخوف كاتباً فريداً من نوعه، ويحوز على شهرةٍ واسعةٍ[87]».

ولقد تناول النقاد نتاجات ميخائيل شولوخوف في أبحاثهم ودراساتهم، وقوموها تقويماً عالياً، فأشار الكاتب مكسيم غوركي إلى عظمة وأهمية نتاج شولوخوف، إذ قال عنه: «إن شولوخوف في حقيقة الأمر عبقري» وأثنى الكاتب المعروف الكسي تولستوي على رواية «الدون الهادئ» ووضعها من حيث القيمة والأهمية الأدبية في مصاف رواية ليف تولستوي «الحرب والسلام»، وقال الكاتب فادييف: ««إن شولوخوف أكثرنا عبقريَّةً وإبداعاً»، وأضاف الناقد الأدبي والشَّخصية الاجتماعية البارزة لوناتشارسكي أ. ف إلى أن رواية «الدون الهادئ» تذكرنا بأفضل النتاجات الأدبية والقفزات النوعية في الأدب الروسي في الفترة الماضية[88]».

ويتساءل الناس فيما بينهم عن قوة جاذبية نتاجات شولوخوف، فيصلون إلى نتيجة مفادها بأنه قد نجح في اختيار المواضيع لنتاجاته، ولكن عندما يستعرض النقاد الكتاب الآخرين، فإنهم يجدون بأنَّ غيرهُ من الكُتاب قد اختاروا المواضيع الهامَّة مثله أيضاً، وبعد التحليل والبحث والمقارنة يتضح بأن القضية الأساسية لتفوق وعظمة نتاجات شولوخوف: «الدون الهادئ» «الأرض البكر حرثناها» «مصير إنسان» وغيرها تقوم على الوحدة القوية والمتينة بين الشكل والمضمون دون أي خلل أو مواربة، وهذا ما جعل نتاجات شولوخوف من الكتب

---

[87] سيرافيموفيتش أ. س. في كتاب كلمة عن شولوخوف، موسكو 1973، ص199.

[88] نفس المرجع السابق، ص10.

المحببة، والتي تُقرأ باستمرار من قبل المواطنين السوفييت والأجانب، ومما يميز شولوخوف عن غيره تلك العبقرية النافذة إلى حقيقة الأشياء، وجوهر الأمور، حتى أقصى أغوارها بنظرٍ ثاقبٍ، وتمحيصٍ ليس له مثيل.

فمنذ السنوات الأولى لنشاط شولوخوف الأدبي أصبح ذا شهرةٍ واسعةٍ كغيره من كتاب تلك الفترة أمثال سيرافيموفيتش وفورمانوف وغيرهما ممن عملوا جاهدين لعكس الحقيقة الخالصة بواقعية جذَّابة، لقد تحدث شولوخوف عن نتاجاته الأولى، إذ اعترف بأنه عمد إلى تصوير الحقيقة، وأن يكتب عن القضايا الملحَّة والضرورية لتطبيق قوانين ونظريات الاشتراكية على الواقع العملي بما فيه خدمة الشَّعب.

الدون الهادئ:

إن الأدب السوفييتي الجديد قد أخذ على عاتقه مهمة تربية الإنسان الجديد، وكانت هذه من إحدى المهام الأساسية والصعبة، التي تقف أمام كتاب العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، ففي الأقاصيص الأولى لشولوخوف نرى أن الموضوع الأساسي هو صقل وتهذيب الوعي الإنساني الجديد، الذي يتطلَّبهُ البناء الاشتراكي، وكانت هذه الأقاصيص غير مكتملة من الناحية الفنية، وفيما بعد أجاد ميخائيل شولوخوف في عكس وتصوير الحياة، ويلاحظ القارئ الفرق الشاسع بين القصص الأولى لشولوخوف وبين نتاجاته الملحمية الكبيرة مثل «الدون الهادئ»، الذي يعتمد وبشكل أساسي على الحقائق التاريخية من واقع الحياة السوفييتية بكل جوانبها وعوالمها وما حل به من تغيير وتطور، وبعكس هذا النتاج الأدبي الرائع المسيرة الكبرى للتطور، التي سار عبرها الشعب السوفييتي على طريق بناء الحياة الجديدة، ويبين المؤلف الأهمية التاريخية لوعي وسيكولوجية وطبيعة وأخلاق الفرد السوفييتي خلال عشرة

أعوام من مرحلة الانعطاف التاريخي في حياته. ويعكس طبيعة الإنسان بكل ما فيها من ازدواجية الخير والشر والصراع الدائر في وعيه ومشاعره المتناقضة. كل هذا يشكل المحور الأساسي والهام في الرواية والقضية الأساسية في هذه الرواية تتبين ليس من خلال طبيعة فردٍ واحدٍ، زد على ذلك أن البطل الأساسي غريغوري ميليخوف لا يشغل مكاناً كبيراً في الرواية، إذ يوجد الكثير من الشخصيات الأخرى، التي تقوم بأدوار أساسية وهامةٍ أيضاً، ويرتبط مصير كل واحد من هؤلاء الأبطال بمصير الشَّعب عامة، فشخصية غريغوري ميليخوف تتضمن القضايا الفكرية الأساسية والنزاع التاريخي للنتاج الفكري، وهذا بالذات ينطبق على جميع الشخصيات الأخرى المتناقضة أو المنسجمة في الحياة اليومية، والتي تتقارع وتتصارع مع نفسها تارةً ومع المحيط الاجتماعي تارةً أخرى. وكلُّها تنساق في صور وقوالب أدبية لا يمسها التفكك من قريب أو بعيد، وما شخصيات الرواية إلا خلايا حساسة من المجتمع السوفييتي قبل وبعد ثورة أُكتوبر الاشتراكية، ومن خلال هذه الشخصيات عكس لنا شولوخوف العلاقة القائمة بين هذه الأوساط الاجتماعية والثورة وارتباط كل منهم بمصلحة الشَّعب عامة.

ويصف الكاتب شولوخوف في روايته «الدون الهادئ»، مختلف فئات القوزاق الساكنين على ضفاف نهر الدون، ويعكس لنا عاداتهم وتقاليدهم وكل ما تحتويه، حياتهم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأرض خلال عدة قرون من الزمن، ومن إحدى المهام الأساسية، التي كانت أمام شولوخوف عند كتابة رواية «الدون الهادئ» هو الإطلاع عن كثبٍ على حياة القرى البعيدة المتخلفة في جميع المجالات وإقناع السكان المتواجدين فيها بضرورة التعاونيات من أجل تطوير هذا المجتمع الريفي على أسس جديدة وتكوين شخصية الفرد القادر على المساهمة بشكلٍ فعالٍ في بناء المجتمع الاشتراكي، ولقد عانى شولوخوف معاناة كبرى ومعقدة على طريق استقصاء الحقائق الوثائقية عن حياة الريف والفلاحين عامة،

لأن تلك المرحلة بالذات اتسمت بكثير من التعقيدات لأنَّها كانت مرحلة نضالٍ ضد القديم بكافة أشكاله، وخلق جيل من الشباب ليقود النضال العنيف ضد مخلفات الماضي.

وتنحصر أهمية النتاج الأدبي «الدون الهادئ» بأنه يتمكن من تحديد المستقبل الأفضل للفلاحين بالاعتماد على المعطيات الثورية الجديدة، ومن خلال التقدير الصحيح للطاقات الجماهيرية، ومن جهةٍ أُخرى، إن الكاتب قد أدان وبقوة محاولات بعض الفلاحين، الذين ابتعدوا عن حلِّ القضية الأساسية في حياتهم، كما يبين هذا النتاج أنه من الصعب جداً، بل من المستحيل أن تتوقف عجلة التاريخ عن الدوران، والسير إلى الأمام.

وخلال عملية النضال العام تتمرس الجماهير الشعبية وتتعلم في مدرسة النضال الثوري، ومع تربية الجماهير والطبقات بالحياة نفسها نجد أن النضال الثوري يطور الذات الإنسانية الرفيعة والممتازة ـ شخصية الإنسان ـ باني المجتمع الجديد.

في رواية «الدون الهادئ» يرسم ميخائيل شولوخوف بعبقريةٍ نادرةٍ مصير غريغوري ميليخوف، إذ أن هذا البطل يقع في تناقضاتٍ كثيرةٍ مع الظروف التاريخية، فهو عاجزٌ عن تفهم جوهر وحقيقة هذه التناقضات، وإيجاد الطريق الصحيح في الحياة، ويمثل غريغوري ميليخوف بعض الفئات أو الشخصيات الاجتماعية التي لم تتمكن من فهم حقيقة الثورة، التي قامت من أجل الشعب عامة، وبغض النظر عن بعض التصرفات السلبية، نجد أن المؤلف لا يقف ضده حتى النهاية ولا يحاكمه على تصرفاته هذه، لأن شولوخوف كان يثق، بأن هذه الأخطاء التي يرتكبها ميليخوف، ما هي إلا ظاهرة عابرة ترتكز على أساس عدم الفهم الصحيح والنهائي لحقيقة الثورة ومبادئها فالبطل الأدبي غريغوري ميليخوف يعود من حيثُ أصله الطبقي إلى فئة اجتماعية متوسطة الحال من الأسر الفلاحية القوزاقية الثرية نسبياً، وكان قد شاهد بنفسه الآلام والمصائب الكثيرة التي حلت قبل الثورة بالشعب الروسي وغيره من شعوب روسيا أيام الحكم

obeikandi.com

القيصري، كما رأى ميليخوف بأم عينه الاضطهاد الكبير، الذي مارسهُ النظام القيصري ضد الشعب الكادح، ولقد أثرت الأحداث خلال وبعد الحرب العالمية الأولى على أفكار ميليخوف ووعيهُ، وأصبح مشاركاً نشطاً في أحداث الحرب، ثم تعاطف ميليخوف مع الثورة، ولكن المسيرة التي قطعتها الثورة كانت توقعه في اختلافات وتناقضات شخصية دائمة، رَغم أنه كان يتمتع بدرجةٍ كبيرةٍ من الحماس، ويبدأ عبر هذا الطريق بالصراع الحاد مع نفسه أحياناً ومع من حوله أحياناً أخرى، ويقع في العديد من الأخطاء، غير القابلة للتصحيح وميليخوف إنسان نصف متعلم بما للكلمة من معنى، وينعكس هذا مباشرة على سلوكه وحياته عامة، فهو ينتقل من طرف إلى طرف، يتأرجح بين الجهتين، وما هذه الميزات التي يتسم بها إلا بعض ميزات طبقته، التي ينتمي إليها، والتي تفضّل التأرجح بين اليسار واليمين ـ وحسب مفاهيم تلك الفترة ـ بين الإيمان بالثورة الاشتراكية أو الوقوف إلى جانب القوى المناهضة لها، كل هذا وبعد صراع وتقلب طويلين اتجه غريغوري ميليخوف إلى الصف المعادي للشعب، ووقف إلى جانب القوى التي عملت كل ما بوسعها من أجل إخماد الثورة، وقتل الكثيرين من الشباب الثوريين، وأراق دماء الأبرياء الكادحين الذين ناضلوا من أجل الحرية والثورة، وفي النتيجة انعزل كلياً عن الشعب، وأخذ يبحث عن الحقيقة في كل مكان، ولكنه لم يتمكن من فهم مبادئ الثورة، وأكثر من ذلك، نراه قد حمل السلاح ضد الثورة، وفي هذا بالذات تتجسد تراجيديته الذاتية والإنسانية بآن واحد.

وثمة سؤال: هل كان غريغوري ميليخوف مقتنعاً حتى النهاية وبالاعتماد على تفكير علمي بمعاداته للثورة؟ وهل طريق العودة عن هذه الأخطاء التي ارتكبها مقطوعة؟ من المحتمل، لا، ولقد أشار الكاتب إلى هذه الناحية، إذ أكد أن المجتمع والتطور اللاحق للثورة سوف يولدان القناعات الجديدة للإنسان، ويغيران الكثير من مواقفه السابقة، وهذا مجرد توقع قد أشار إليه شولوخوف من

بعيد، ولكن الواقع يدلُّ على أنَّ هذا التوقع قد تأكد على المجال العملي.

في رواية «الدون الهادئ» يوجد كل شيء، وكل ما ينتظره الإنسان من التراجيديا، هو مستقبل غريغوري ميليخوف ذاته، وتاريخ بحثه عن الحقيقة، وتجواله وترحاله وتأرجحه، السقوط والتحليق، لحظات النضوج والأخطاء الكثيرة، ولقد أطلق الناقد فيشنيفسكي على هذا النوع الجديد من الفن الروائي «التراجيديا المتفائلة»، إن التجديد الذي أحدثه ميخائيل شولوخوف في حلِّ الأزمة التراجيدية ينحصر في أنه يدل على حلِّ العقدة، والنهاية المحتومة بالنسبة للكثير من الأبطال المأساويين في العصور الغابرة، ففي رواية «الدون الهادئ» لا يوجد أي اضمحلالٍ روحي أو قتل فيزيولوجي للبطل الأساس في الرواية[89]».

إن رواية «الدون الهادئ» تمتاز بميزاتٍ أدبيةٍ وفنيةٍ خاصة، فبغض النظر عن التراجيديا التي يعاني منها البطل الأساسي، وغيره من الشّخصيات المتعاقبة في الرواية، نلاحظ أن القارئ والباحث، والناقد الأدبي وغيرهم يحسون بشعورٍ واحدٍ تقريباً وهو التفاؤل بالمستقبل، وهذا يؤكد مرة أخرى على المقدرة العظمى التي يمتاز بها شولوخوف في عكس المصير التراجيدي، ويضع الكاتب في هذه الرواية قضية (الإنسان والتاريخ) كمسألة مسؤولية الفرد أمام التاريخ والمجتمع أمام الفرد.

هذا ويتناول شولوخوف قضية الملكية الخاصة، ويرى فيها السَّبب الأساسي الذي جعل غريغوري ميليخوف يبتعد عن الثورة الاشتراكية ويلتزم بالنظام القديم المنهار، وهذا بالذات يجعله مقيداً بقيود الماضي، وهذا يبرهن ومن جديد على أن ميليخوف إنسان غير مثقف، وليس لديه بعد نظر بالنسبة للقضايا المطروحة عليه، وهذا ما يميز الطبقة المتوسطة من الفلاحين، الذين رأوا في الأفكار الاشتراكية ـ اجتماعية كانت أم اقتصادية ـ شيئاً يتعارض مع

---

[89] بيتيلين ف. روسيا ـ حبي الوحيد، موسكو 1972، ص68.

مصالحهم وطموحاتهم الأنانية الخاصة.

إن ميليخوف بعيد كل البعد عن إدراك الحقيقة، التي تمكن الإنسان من أن يتحرر من الملكية الخاصة، وقيودها القاسية، وأن ينخرط في النضال التعاوني من أجل انتصار الفكر الاشتراكي، ويرى الكاتب أن التحرر من الملكية الخاصة هو بمثابة ـ الخطوة الأولى نحو الحرية، ولكن هذه المهمة تتطلب إنساناً آخر، مختلف تماماً عن ميليخوف، ويمتاز ببعد النظر وإدراك الواقع كما يجب أن يكون، وهذا البطل نجده في رواية شولوخوف «الأرض البكر حرثناها» التي سنتعرض لها بعد قليل.

وبكلمة فإن شولوخوف قد عكس حياة الشعب في منطقة الدون لملايين وملايين البشر، وأبرز أهم ميزات هذا الشعب لشعوب الكرة الأرضية بأجملها: «انظروا إلى هؤلاء البشر ما أجملهم وما أروع سماتهم في هذه المنطقة، وكم هي نفوسهم البشرية غنيةً وكريمةً وطيبةً! وكم هي قلوبهم دافئة ومفعمة بالحب للأرض و الإنسان! أنظروا إلى حياتهم، وعملهم، وحبهم، وكيف يناضلون، انظروا إلى أياديهم المعروقة من العمل والكدح في الأرض، ومن البرد، يا لها من أيدٍ بارعةٍ وقويَّةٍ ومجربةٍ... أنظروا إلى الطبيعة الجميلة الهادئة الرائعة في منطقة الدون...».

لقد كان ميخائيل شولوخوف دائماً مع الشعب ـ في الحياة العادية وفي أيام المعاناة القاسية، وفي سنوات الحرب الوطنية العظمى (الحرب العالمية الثانية) قام العقيد ميخائيل شولوخوف بمهمة مراسل لصحيفتي «البرافدا» و«النجم الأحمر» وكتب ذات مرة يقول: «إننا خُلقنا من أجل الحياة وإننا سوف نحيا بعزَّةٍ وكرامة» ولقد انصهر شولوخوف بحياة شعبه بشكلٍ كامل، وأكثر من أي وقتٍ آخر، وعرف دقائق الأمور بالنسبة لمختلف الفئات الاجتماعية وكتب الكسندر سيرافيموفيتش في هذا الخصوص ما يلي: لقد استوعب لغة الشَّعب في منطقة الدون كمن يتغذى بحليب أمه، وأتقن لهجة القوزاق الخاصة، بكل

ما فيها من حدَّةٍ وبروق وصور أدبية، ومرونة في التلاعب بالألفاظ، ولقد أزهرت هذه اللغة وأينعت تحت قلم شولوخوف بشكلٍ سحري، ويصعب على الكثيرين من الكتاب أن يعكسوا الحياة بهذه المقدرة الفنية الرائعة».

وخلال وجود شولوخوف في الجبهة تعرف على حياة الجنود بكلِّ دقائقها وصادق الكثيرين منهم، وغالباً ما كان يتوجه الجنود إليه يمثل هذا الطلب: ـ أيها الكاتب العزيز ميخائيل الكسندروفيتس، نرجو أن تهدونا نسخةً من كتابكم «الدون الهادئ»، فالشباب الجنود في الجبهة يرغبون أن يكون هذا الكتاب إلى جانبهم في المعارك...

وتتحصر القوة الملحمية «للدون الهادئ» في أنه أبرز الحرب الاستعمارية (العالمية الأولى) التي خاضتها الدول الرأسمالية من أجل الحصول على مواقع سياسية واقتصادية جديدة ويبين المؤلف من خلال هذا الصراع كيف تمكنت البروليتاريا الروسية من تحطيم القيود والأغلال، التي قيدت إرادة وحرية الشَّعب الروسي خلال العديد من القرون والكلام يجري هنا ليس عن إنهاء العلاقات القديمة البالية في وسط القوزاق فحسب، بل وضع نقطة النهاية عند قوة رأسمالية في العالم في تلك الآونة، والقضاء على أشهر نظام ديكتاتوري مستبد. وكل ذلك يصوره العقل المبدع للكاتب شولوخوف من خلال الصراع التناحري، إذ يبلغ التناقض الاجتماعي مرحلته القصوى: الأخ يقف ضد أخيه، والابن يحاور أباه، أو بالعكس على أثر الخلافات الفكرية الطبقية.

وبنفس الوقت، الذي يصور فيه شولوخوف هذه التناقضات الاجتماعية المحتدمة يدين إدانة كبرى المحاولة الفاشلة لبعض الفلاحين بابتعادهم عن فهم وإدراك التطور الحقيقي للعملية التاريخية، ولجوئهم إلى التقنُّع بالأوهام البورجوازية والوقوف ضِدَّ القيصر، وضد قادة الثورة من البولشيفيك بنفس الوقت، فإحدى الشخصيات ـ يفيم ايزفارين يتغنى «بعذوبة» بأفكار وهمية حول استقلالية دولة الفلاحين الصغار ولكن يبين المؤلف أن هذه الأوهام غير صحيحة من الناحية

التاريخية في منطقة الدون وفي جميع مناطق روسيا الأخرى، وبهذا ساهم شولوخوف بفضح التخيلات الوهمية والتصورات المثالية عند الكثير من الفلاحين.

ويبين شولوخوف الأسس التراجيدية للبطل غريغوري ميليخوف والتي تتحصر في القدرة الأخلاقية، وضعف الإرادة أمام الحد من علاقته مع الماضي: (حبه لاكسينا، وخروجه من بيته وقطع علاقته بأسرته)، وكان ميليخوف ضعيفاً وغير قادر على فهم النظام الاجتماعي الجديد، رغم أن الحوادث التاريخية المحيطة به قد هيأته لهذا، ولقد اعترف ميليخوف في نهاية المطاف بضعف أفكاره الاجتماعية وعدم جدواها، فتحرر نسبياً من بعض أوهامه الخالية، وأصبح جاهزاً لأن يطوره المؤلف حسب المعطيات الجديدة، وفي هذا بالذات تنحصر الفكرة التاريخية المتفائلة بالمستقبل في الرواية.

لقد تمكَّنَ ميخائيل شولوخوف من عكس المراحل التاريخية في نتاجاته خطوة خطوة: القضاء على الإنتاج الصَّغير وإحلال الإنتاج الاجتماعي الكبير، وتكوين القوى الإنتاجية الاجتماعية التي تحرر الناس من الارتباط العبودي بخصوص العلاقة مع الطبيعة، والقضاء التدريجي على الفئات العليا، والملكيات الخاصة، وتكوين الذات الحرة للإنسان السوفييتي.

أما بالنسبة لوصف الطبيعة عند شولوخوف فهو شيء رائعٌ للغاية، ويأتي الوصف للطبيعة متناسباً مع حياة الشخصيات الفاعلة في الرواية، ويخدم الوصف العالم الخارجي وميزات الطبيعة مصلحة البطل الأساسي وبما يخدم المضمون العام للرواية، ولهذا فإن نتاج الكاتب «الدون الهادئ» أو غيره من النتاجات يؤكد على وحدة الإنسان والطبيعة، ويُرشد القارئ إلى علاقة عقلانية مع الطبيعة المحيطة بالإنسان والوسط الحياتي للبشر، ومن هنا تأتي دعوة شولوخوف للحفاظ على الغابة الروسية، وزرع الحدائق والأشجار المثمرة، والاعتناء بالحقول وإنشاء مشاريع الري وغير ذلك منسجمة انسجاماً كلياً مع أهدافه الإنسانية،

التي نادى بها المؤلف في حياته.
ولا يوجد في الأدب الروسي أو الأدب العالمي كافة كاتب تمكن كشولوخوف من عكس مصير الإنسان ـ العامل، من خلال الصراع مع العالم المحيط به ونضاله ضد الصعوبات الشتى بما في ذلك قوى الشر والعدوان وضد كل من يقف على طريق الإنسان السائر نحو النور والحياة الأفضل، ومن خلال نتاجاته الأدبية الخالدة تطلع على حياة مُمثلي الشعب العامل المتسمين بقوة عوالمهم الداخلية، والإرادة الصلبة، والجمال الروحي للإنسان الروسي السوفييتي، والحقيقة القاسية عن الحرب الأهلية، التي اتسمت بالطابع التراجيدي القاسي، والحب الإنساني الرتيب لكل الإنسانية، ولكل ما هو خير وسعادة الشَّعب بفئاته الكادحة، ومن أجل القضاء على الظلم والاستغلال، وهكذا سخر شولوخوف الوصف للطبيعة بما فيه خدمة الموضوع الأساسي في الرواية فيقول وهو يصف وضع أكسينا: «كانت ثمة ريح جنوبية شرقية قوية، وقد جاءت من بعيد، فاستنفذت قواها خلال الليل، ولكنها عادت عند الصباح لتحمل حرارة صحارى الخزر إلى الدون، وإذا انحدرت على المروج المخضلة بالمياه على امتداد الضفة اليسرى، بخرت الندى وهزمت الضباب وغلفت الرؤوس الكلسية للتلال الواقعة إلى جانب الدون بغبار وردي قاتم.
خلعت أكسينا صندلها، ورفعت طرف تنورتها بيدها اليسرى ـ إذ كان لا يزال ثمة ندى في الغابة ـ ومضت تُغذِّ السَّير في دربٍ غير مطروق، واستشعرت قدماها العاريتان برودةً لذيذةً على الأرض الرطبة، فيما كانت الرياح الجافة تلثم بشراهة عنقها وسمانتي ساقيها المكتنزتين العاريتين.
وحينما بلغت موضعاً مكشوفاً من الممر، جلست لتستريح إلى جانب أجمَّةٍ مُزهرةٍ من (عليق الكلب)، وفي مكان ما قريب منها، انتشر بطٌّ بري يخشخش بين عيدان قصب النبات المائي في بركة أوشكت على الجفاف، ومن هناك أطلق ذكر بصيحةٍ مبحوحةٍ موجهة لأُنثاه، ووراء الدون، كانت تلعلع المدافع

الرشاشة بتقطع نسبي، وسمعت الانفجارات الكثيرة للقذائف المدفعية على هذا الجانب من النهر، وابتعدت تجلجل كالأصداء.

أخذت المدة تطول بين القذيفة والأخرى، فبانت الأرض لاكسينا بكل معالمها وحناياها: أوراق أشجار الدردار الخضر، والنهايات المدببة البيض، وأوراق البلوط ذات الأشكال الهندسية المختلفة تخشخش مرتعشة في مهب الريح، وموجة صامتة قادمة من أجمَّة الحور اليافعة، ومن بعيد وبعيد كان طير باشق يحصي، بصوتٍ واهنٍ ما تبقى من سنوات عمر أحدهم: وفيما كان زقزاق منفوش الرأس يطير عبر البركة، أَخذ ينادي بلا انقطاع «زق، زق، زق، زق،» وحط طير رمادي اللَّون، صغير على بعد خطوتين من أكسينا ليشرب الماء من حفرة في الدرب، فأخذ يقذف برأسه الصغير إلى الوراء ويرمش عينيه في حبور، ومضت طيور النحل الكبيرة المنفوشة الرمادية ترسل طنينها المتواصل، وجعلت نحلات برية دكناء اللون تتأرجح على تيجان أزهار المرج، ثم اختفت، حاملة حبوب اللقاح المعطرة إلى الأفياء الباردة لجذوع الأشجار الجوفاء، وكان العصير يتقطر من أغصان الحور، ومن تحت أجمة من الدَّغل الشوكي فاحت رائحة الأوراق المعتقة المتعفنة.

كل هذا جعل اكسينا تجمَّدَ في مكانها دون حِراك، تعب عطور الغابة المنوعة. حقاً أن الغابة كانت تعيش أوج خضرتها وجمالها الرائع، وتزهو بعنفوان وكمال لا مثيل لهما، حتى تلك البقعة الخالية من الأشجار، برزت بفيض من الأزهار والأعشاب، حتى أن عيني أكسينا ذهلتا أمام منظر تلك الجدائل الرائعة من الأزهار والحشائش».

ويستمر الكاتب بالوصف منسجماً مع الطبيعة، ومع العالم الداخلي لإحدى شخصيات روايته حتى يؤلف بين الاثنتين معاً، وتستسلم أكسينا لهذه الطبيعة الرائعة وتغفو بين الأزهار كالنحلة التي أسكرها عبق الورد ورحيق الأزهار حالمة بأجمل الأحلام: «علا الابتسام ثغرها، وأخذت شفتاها تتحركان بخفة،

obeikandi.com

ومدَّت أصابعها بحذرٍ لتلمس سيقان أزهار صغيرة، شاحبة الزرقة كانت تجهل اسمها، ثم ثنت خصرها المكتنز لتشمها، وفجأة تناهى إلى أنفها شذى العبق لزنابق الوادي، فراحت تنبش بيديها حتى عثرت على النبتة، كانت نابتة على مقربة منها تحت شُجيرةٍ ظليلةٍ منيعةٍ، وكانت الأوراق العريضة، التي عرفت الاخضرار ذات يوم، لا تزال تمنع الشمس، وهي غيِّرة عن الساق المائل في نموه الخفيف، وقد توَّجتهُ كؤوس الورد البيضاء المُتهدِّلة، لكن الأوراق، وقد غشاها الندى والجفاف الأصفر، كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكأن الموت قد شرع يعضُّ أطراف الزهرة نفسها بنابه، كأن الكأسين السفليين متعفنين ومسودين، ولم يكن سوى الكأس الأعلى وقد خضلته دموع الندى، ليومض في ضياء الشَّمس ببياضٍ باهرٍ فتان.

وفيما يلي كانت أكسينا تنظر في تلك اللَّحظة الوجيزة إلى الزَّهرة وتعبُّ من أريجها الحزين، عادت بها الذَّاكرة، لسببٍ ما، إلى صباها وإلى حياتها الطويلة والمليئة بالسعادة، إذاً، لقد ابتعدت عن مرحلة الشباب... وإلا فهل تعمد امرأة لم تزل شابة إلى البكاء لكل ذكرى عابرة تمسُّ شغاف القلب؟.

وهكذا لفها النعاس ودموعها ما زالت تنهمر، مُخفيةً وجهها المبلل بالدموع بين يديها».

وهكذا يلاحظ القارئ أن الطبيعة قد انعكست في نتاج شولوخوف بواقعيةٍ لا مثيل لها تستمر بأسلوبها العذب حتى نهاية الرواية، ويصل شولوخوف إلى ذروة الإبداع العُليا في وصفهِ لبطلهِ الأساسي غريغوري ميليخوف، الذي وجد في الطبيعة خير سبيل للهروب من هذا الواقع الذي يعيشه والمأساة، التي يُعاني منها أثر تبعثر رفاقه وفَشل نشاطهم المعادي للثورة، بعد أن ارتكبوا أبشع الأعمال قسوةً وإجراماً، إذ قال تشاماكوف محدثاً ميليخوف:

ـ لقد قمنا بقليل من التجوال، يا ميليخوف بعد أن تركتنا أوشكنا أن نبلغ استراخان، وكما في سهب الكالميك... لقد طفنا في أرجاء العالم الفسيح، أما

الدماء التي سفحناها... فحدِّث ولا حرج، أخذ الحمر زوجة ياكوف يفيموفيتش رهينةً، وصادروا أملاكهُ، فجنَّ جنونهُ وأصدر أوامره بقتل كل من يتعاون مع السلطة السوفييتية، فبدأنا بقتلهم عن بكرة أبيهم: مدرسين، أطباء، مرشدين زراعيين... يعلم الشيطان من لم نقتله ثم أضاف متنهداً، وهو ما يزال يرتعش من البرد:

ـ أما الآن، فقد قضوا علينا، وإلى الأبد، أنزلوا ضربتهم الأولى بنا بالقرب من تيشانسكايا ثم بالقرب من سولومني قبل أسبوع، طوقونا من ثلاثة جوانب أثناء الليل، ولم يتركوا لنا منفذاً سوى الصعود إلى الجبال، وهناك كان الثلج يصل إلى بطون الخيل ارتفاعاً، فتحوا علينا نيران مدافعهم الرشاشة مع الفجر، وكانت تلك بداية النهاية، حصدونا حصداً بالمدافع الرشاشة، لم يفلح في النجاة إلا ابن فومين الشاب وأنا، فقط....

قال غريغوري بلا مبالاة:

ـ حسناً، هذه النهاية كانت مُحتَّمة.

وينتهي الأمر بغريغوري ميليخوف بالعودة إلى أهله، وقذف بندقيته ومسدسه في الدون مع ما تبقى لديه من رصاص، ليعيش إلى جانب زوجته وطفليه.

ويبقى هذا النتاج الأدبي الرائع «الدون الهادئ» مرآة حقيقية لمرحلة تاريخية بأكملها، ويشكِّلُ صرحاً أدبياً هاماً في مكتبة الأدب العالمي، وتنحصر عبقرية الكاتب شولوخوف في أنه قد تنبأ بالمرحلة القادمة التي تتطلب القضاء على الأشكال الاجتماعية القديمة البالية وخلق البنى الجديدة القائمة على العدل والمساواة ورفض جميع أشكال الاستغلال والاضطهاد والأحكام الديكتاتورية.

الأرض البكر حرثناها:

أشير سابقاً إلى أن الملكية الخاصة، بغض النظر عن صغرها لدى ميليخوف كانت من أهم الأسباب، التي ربطت بين مصيره وبين النظام المنحسر، وهي بالذات التي جعلته يقف إلى جانب قوات (الحرس الأبيض) الموالية للقيصر والنظام الديكتاتوري المنصرم، وإن دل هذا على شيء فهو يدل على قصر النظر في إدراك المفاهيم السياسية والاقتصادية الاشتراكية، ومن الجدير بالذكر أن نسبة لا بأس بها من فلاحي تلك الآونة كانوا يفكرون بنفس الطريقة التي يفكر بها ميليخوف، ولم يكن لديهم مقدرة فكرية لإدراك فائدة التعاونيات الزراعية الحكومية، التي شرعت الثورة بتنظيمها في الريف الروسي، والتي من شأنها أن توفر الراحة والحياة الأفضل للفلاحين على مختلف مستوياتهم، وكان غريغوري ميليخوف وأمثاله عاجزين عن فهم وإدراك تلك الحقيقة، بأن التخلص من الملكية الخاصة في النظام الاشتراكي هو بمثابة الخطوة الأولى والأساسية نحو الحرية، ولم يرغب ميخائيل شولوخوف في أن يتوصل بطله ميليخوف إلى إدراك هذه الناحية، وتركها ليخُصَّ بها جيلاً آخر من أبطاله في رواية «الأرض البكر حرثناها»، تعتبر رواية «الأرض البكر حرثناها» انعكاساً للثورة الاشتراكية في الريف، وهي وحدها، التي كان بمقدورها لأول مرة في تاريخ الإنسان أن تحول ملكية الأرض الخاصة إلى تعاونيات زراعية جماعية تشرف عليها الدولة، وقد لزم الكاتب الكثير من الوقت لدراسة موضوع التعاونيات من الناحية التاريخية، بما في ذلك الصراعات والتناقضات، التي بلغت في بعض الأحيان درجة الصراع الدامي، ومن خِلال هذا كله عكس شولوخوف المشكلات الاجتماعية الجديدة والظواهر السيكولوجية الحياتية للفئات السكانية المتكونة على أساس المعطيات الجديدة، ولقد خصص شولوخوف رواية «الأرض البكر حرثناها» لإتمام الموضوع الأساسي، وهو تحرير الشّعب من خلال الثورة الاجتماعية، وتخليصه من القيود الفكرية القديمة والعلاقات

الاقتصادية البالية القائمة على أساس استغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب شولوخوف في تلك الآونة، التي كان يعمل فيها في تأليف «الدون الهادئ» قد أصبح يشعر بضرورةٍ ملحَّةٍ جداً لتأليف كتاب يعكس المسائل الملحة في العشرينات من القرن العشرين، وأن يبرز للقارئ حياة الفلاح في منطقة الدون، بكل ما يحيط به من مشاكل، وأن يقدم صورة معاصرة للفلاح القوزاقي، وهكذا نجده في عام 1932 يصدر الجزء الأول من رواية «الأرض البكر حرثناها» التي أشرنا إليها آنفاً، والتي لم ينهها المؤلف إلا بعد 27 سنة، أي في عام 1959 إذ تمكن فيها الكاتب شولوخوف من عكس مرحلة تنظيم التعاونيات بعد الثورة الاشتراكية.

ومن جهة أخرى فإن أحداث رواية «الأرض البكر حرثناها» مرتبطة إلى درجةٍ كبيرةٍ بأحداث الحرب الأهلية المصورة في «الدون الهادئ» وخاصَّةً أن ماكار ناغولنوف وكاندرات مايدانيكوف وغيرهما قد شاركوا في أحداث الحرب الأهلية، ومن جهةٍ ثانيةٍ شارك الضابط بالوفتسوف والإقطاعي اوسترونوف بأعمال الشَّغب ضد الثورة، وبعد انتصار الثورة البلشفية اختفى هؤلاء، وأصبحوا يمارسون نشاطهم بالسر، وأخذ الصراع الطبقي شكلاً آخر، وهنا تمكن الكاتب وبعبقرية نادرة من تصوير مراحل تكون المجتمع الاشتراكي، والتحولات الكبيرة في حياة الشعب السوفييتي، ولهذا كانت مهمة تربية الإنسان الجديد ـ باني الاشتراكية من أهم القضايا التي هدف وطمح إليها الكاتب.

ويبحث المؤلف موضوع الشعب العامل الكادح في رواية «الأرض البكر حرثناها» من زاوية متطلبات بناء المجتمع الاشتراكي ومساهمة كافة الفئات الشَّعبية في بناء وتطوير المدينة والقرية على حد سواء، وبما يتناسب مع المراحل الزَّمنية المتعاقبة.

مع طلوع العام 1930 أخذت الجمعيات التعاونية الزراعية تشق طريقها إلى

النور، إذ انتظمت الجمعيات في الكثير من القُرى، وتمَّ حرث الأراضي بعناية كبرى، ومع شق أثلام الأرض البكر كانت تتعمق المفاهيم الاشتراكية في عقول الفلاحين القوزاق ووعيهم وعلاقتهم بالملكية الاشتراكية التعاونية للأرض.

ولقد صوَّر لنا الكاتب شولوخوف في هذا النتاج الأدبي الرائع عدداً من الشخصيات النموذجية من بين سكان الريف الروسي، وفي الوقت الذي كان غريغوري ميليخوف يمثل المصير التراجيدي لذلك الجزء من السكان القوزاق، وخاصةً أولئك الذين لم يتفهموا مبادئ الثورة وأهدافها نتيجة الضَّياع الفكري والتخبط غير الواعي، كان شولوخوف يصور شخصياته وهم يقفون بشكلٍ عنيدٍ ضد الضياع الفكري، ويعبرون عن الموقف السليم في تنظيم الشعب في الريف في جمعيات تعاونية فلاحية.

ومن خلال شخصيات البلاشفة دافيدوف، ناغولنوف ورازميوتنوف، ومن خلال الفقراء والكادحين مايدانيكوف، شوكار وليوبيشكين وغيرهم، والصراع بين هؤلاء من جهة والكولاك والبرجوازيين والملاكين الكبار وممثليهما استروفنوف وبالفتسوف من جهةٍ أخرى، تتضح الأسباب الحقيقية للصراع بين مختلف الفئات الاجتماعية في المدينة والريف على حدٍّ سواء، ومن خلال تطور الأحداث في الرواية وانضمام الفلاحين الدائم والكثيف إلى التعاونيات، نجد أن استرونوف وبالوفنوف قد بدءا يفقدان مواقعهما بالتدريج، حتى أصبح من الواضح للجميع بأن الفشل قد أصبح قريباً، وهو أمر حتمي أمام هذا المد الجماهيري، الذي يشهده الريف.

بينما نجد أن الأمور في منطقة الدون قد ارتبكت نسبياً إذ أن الإقبال الفلاحي على التعاونيات الزراعية كان واسعاً للغاية، واتجه الفلاحون القوزاق للانخراط في المنظمات التعاونية، وعند هذا برزت مسألة أخرى: لقد تم القضاء على أشكال البنية الاجتماعية الاقتصادية السَّابقة، ولكن ما هي الطرق الأنجح

obeikandi.com

والأفضل لبناء المجتمع الجديد وعلى أي شكل من الأشكال يجب أن يتم ذلك؟ وكان من الصعب جداً أن يحدد هؤلاء الفلاحون البسطاء الصيغة التي يجب السير حسبها، وهنا يجد شولوخوف المعين الذي لا ينضب في تجربة وحكمة الجماهير. وهنا يتوقف الكاتب مطولاً عند توضيح التجارب الجماهيرية في تعميم الإنتاج وإنشاء التعاونيات الفلاحية.

ولقد اعتبر النقاد هذه الرواية أقوى وأشمل من أي كتاب مدرسي يتحدث عن تطور الحياة في الريف الروسي في جميع المجالات، ويعتمد القراء في مختلف أنحاء العالم على هذا الكتاب كمرجع للتعرف على الحياة الروسية، وكيف جرى النضال من أجل بناء المستقبل الأفضل، وتوفر الإمكانات الكبيرة الرائعة الناجمة عن العمل الجماعي بين أوساط الكادحين، وصقل المواهب الخارقة التي تفتقت عنها عقول الفلاحين من خلال عملية الإنتاج والإبداع، وشولوخوف هو أحد الكُتاب الأوائل الذي صوروا البطل الإيجابي في الأدب السوفييتي، ففي شخصية العامل اللينينغرادي دافيدوف الذي قدَّمَ بتكليف من السلطة السوفيتية ليساعد الفلاحين في تنظيم الجمعيات التعاونية الفلاحية، كان دافيدوف يتسم بقوة الإرادة والطموح إلى الأهداف السامية العليا والمثل الإنسانية الخلاقة، وهو بطبيعته مستعدٌ للقيام بأيةِ تضحيةٍ كما أنَّهُ مُتحرر كلياً من النزعة الأنانية الذاتية، وغالباً ما كان على استعدادٍ تامٍ لمساعدة الآخرين وخاصة الضعفاء منهم، ويتصرف دائماً بعقل الثائر المناضل من أجل بناء المستقبل الوضاء للمجتمع عامة.

لقد استخدم الكاتب ميخائيل شولوخوف مختلف الأنواع والألوان الفنية، فمنها القاتمة، ومنها الدافئة، والهادئة والناعمة، والقانية الحمراء وغيرها من الألوان التي لا تعدُّ ولا تحصى من أجل تطوير الحياة بأبعادها الكاملة والمتكاملة، ويستخدم الكاتب شولوخوف في بعض الأحيان بعض الألوان الزاهية ولكنها غير ملاحظة تقريباً، ويفسر المؤلف ذلك بأنه يعكس حقيقة الحياة بكل ما

obeikandi.com

فيها من صِعاب وتناقضات وآلام وآمال، وكانت المواضيع التي تناولها شولوخوف في نتاجاته لا تحتاج إلى ألوانٍ زاهيةٍ، لذا تجنب هذا لأنه خبير في الكشف عن الحقيقة، وانتصار الضوء الذي ينير طريق الشَّعب خلال مسيرة التطور نحو المستقبل الأفضل كان هدفاً واضحاً بالنسبة للكاتب، بل يُشكل حتمية لا مَناص منها.

ولقد أشار أ. ف لوناتشارسكي في معرض كلامهِ عن رواية «الأرض البكر حرثناها» قائلاً: «إن نتاج ميخائيل شولوخوف «الأرض البكر حرثناها» يعتبر من أهم النتاجات الأدبية، فهو من حيثُ الحجم مؤلف كبير ومعقد، وغزير بالنظريات والتطلعات المستقبلية، والأفكار المكسوة بشكلٍ كلامي يتناسب كلياً مع المحتوى الرفيع، ومن جهة أُخرى، فإن هذا النتاج هام للغاية وأكبر من أن يتعرض النقاد له بآراء سلبية مشيرين إلى بعض الثقوب أو القفزات في الحوار، وتسلسل الأحداث[90]».

ويتسم نتاج شولوخوف هذا أكثر من غيره بعكس موضوع الشَّعب بطريقة وأسلوب شعبيين، ولم يكن هذا الأمر بالنسبة للكاتب مُجرد هدف قد سعى إليه طويلاً، ولم يتطلب هذا الأمر جهوداً كبيرة لأن سيرة حياة شولوخوف بأكملها مرتبطة ارتباطاً كلياً بالحياة الشعبية ومصير الشعب عامة، وهو الذي تمكَّنَ ككاتب سوفييتي من أن يتابع مسيرة الكتاب الكلاسيكيين في الأدب الروسي أمثال: ليف تولستوي، وفيودور دوستويفسكي وغيرهما، ولقد كتب شولوخوف بخصوص شعبية الأدب في «مذكرات كاتب» ما يلي: «إنني لم أفهم تلك الأفكار التي تدعو إلى أن يكون الشَّعب ممتلكاً لناصية الثقافة، والتسعة أعشار الباقية بعيدة كل البعد عن الثقافة، وعليهم أن يخدموا بكل ما يملكون من قوى مادية ومعنوية ووسائل إنتاج، ويبقون في الظل، إنني لا أريد أن أفهم وأعيش حسب قناعات أخرى، إنني سوف أبقى أعمل من أجل أن يصبح

[90] لونا تشارسكي أ. ف. خواطر عن فنان، الجريدة الأدبية 11 حزيران 1923 (باللغة الروسية).

شعبنا بأفراده التسعين مليوناً (مع كل من يولد في المستقبل) شعباً مثقفاً واعياً إنسانياً وسعيداً»، وهذه الفكرة بالذات تقرب شولوخوف من تولستوي ودوستويفسكي، إذ إنهم جميعاً قد ناضلوا من أجل ازدهار وسعادة الشعب الروسي وكافة الشعوب المعمورة.

وتجب الإشارة إلى أن الكاتب شولوخوف في رواياته وكافة أعماله الأدبية الأخرى لم يكن مجرد كاتب اجتماعي مؤرخ للحياة الشعبية، بل كان فيلسوفاً وباحثاً سيكولوجياً تعمق في بحث عالم الإنسان الروحي وتطلعاته الأخلاقية، وعرف ميخائيل شولوخوف بمفاهيمه ونظرياته الخاصة حول الإنسان والحياة والعلاقة بينهما، وانعكست هذه القضايا في نتاجاته الأدبية منسجمة انسجاماً كلياً مع اللغة والمحتوى، ومع طبائع الشخصيات وسماتهم وميزاتهم الطبيعية، ويهتم الكاتب اهتماماً كبيراً بالعلاقة الدياليكتيكية بين الروح والوعي والمبادئ الحياتية.

لقد استخدم الكاتب شولوخوف شتى الأساليب الأدبية التي أضفت على نتاجاته سمةً فنيةً رائعة، ومن بين هذه الطرائق والأساليب كان استخدام السخرية المرحة، ومن خلالها ينفذ الكاتب إلى أعماق البطل الأدبي التي في كثير من الأحيان تعبر عن عالم الكاتب الفني ذاته وبنفس الوقت، يدل استخدام السخرية الأدبية على طبيعة الشعب الهادئة والمرحة، والجمال الروحي، وغنى الإنسان وإرادته القوية بغضِّ النظر عن المصير القاسي، الذي يعاني منه، ففي رواية «الدون الهادئ» يقول البطل الرئيسي غريغوري ميليخوف . رغم ذلك المصير الصعب والقاسي، الذي عانى منه: «من الرائع جداً، بأننا شعب مرح، الطرفة عندنا تدوم ذكراها أكثر من المصيبة، وعسى الله أن لا تستمر المصيبة طويلاً...».

أما في رواية «الأرض البكر حرثناها» فغالباً ما نلتقي بالطرفة المضحكة التي تأتي في قالب فني رائع على لسان عدة شخصيات أدبية وعلى رأسهم الجد

obeikandi.com

شوكار، وفي واقع الأمر أن الروح المرحة للغاية هو الأسلوب الوحيد الذي يبرز من خلال شوكار، وكانت الطرفة عنده مسألة أساسية لتصوير ما يعاني منه، وانتقاد من حوله، وكل ما لا يعجبه، وتمتاز الطرفة بالنسبة له عن الأسلوب الهزلي، إذ أن الكاتب يعتمد أسلوب السخرية الهادفة، وإن الابتسامة الساخرة تدخل في عالم شوكار كعنصر مكون لشخصيته الشَّعبية، وتعكس لدرجة كبيرة مصيره ومصير الشَّعب الكادح خِلال مرحلة طويلة من الزَّمن، وخاصة في الأحداث الكبيرة مثل الحرب الأهلية، والتحولات الاشتراكية والحرب العالمية الثانية، ويلاحظ القارئ لنتاجات شولوخوف أن حياة الشعب تنساب عبرها كما ينساب نهر الدون في السهول الروسية الواسعة.

ولهذا بالذات نجد أن الإقبال الكبير من جانب القراء على نتاجات شولوخوف يزداد باستمرار، ويرى القراء الأجانب في مختلف بلدان العالم أنه يوجد الكثير من الأسباب التي تجذبهم نحو شولوخوف، وتحوز نتاجاته على تقدير كبير من جانب القراء بمن فيهم كل من لا يتفق مع شولوخوف في الأمور الفكرية، مع العلم أن بعضهم يكنُّ العِداء للفكر الاشتراكي ولأدب الواقعية الاشتراكية، فيقول بعضهم على سبيل المثال: إن رواية «الأرض البكر حرثناها» نتاج أدبي فني رائع، بغض النظر عن أوجه الخلاف الفكري بيني وبين الكاتب شولوخوف. ويصرِّح ناقد آخر: «إن نتاجات شولوخوف تأسر الإنسان وتزج به في عالمها الفَسيح».

وأكثر ما نال إعجاب القراء تلك الوحدة المتينة في نتاجات شولوخوف عامةً وفي رواية «الأرض البكر حرثناها» بشكلٍ خاصٍّ بين الشكل الفني والمضمون الغني، ولقد أدى هذا إلى أن يقع القارئ تحت تأثير نتاجات شولوخوف ليس فنياً وحسب، بل فكرياً أيضاً، وخاصة أن شولوخوف يملك جميع الوسائل والأساليب الإبداعية للوصول إلى أعماق النفس البشرية واستقطابها، وخاصةً أن الكاتب لم يقدم أفكاره حسب صيغ مجردة، ولم يكن في كلامه واعظاً، بل

يتحدث بصراحة أليفة، ولم يكن بمثابة الحكم أو القاضي للإنسان، بل صديقاً له يعكس آلامه ومصاعبه من جهة، وأفراحه وسعادته وحبه من جهةٍ أخرى، وفي الحالتين يعكس شولوخوف بطله كمناضلٍ عنيدٍ من أجل مبادئه وأهدافه في الحياة.

حقاً إن دافيدوف قد ناضل مع رفاقه في قرية (غريمياشي لوك) من أجل إشادة الجمعيات التعاونية الزراعية على طريق التحول الاشتراكي في منطقة القوزاق، ولكن أية منطقة كانت في العالم، ترغب في أن تقيم جمعيات تعاونية زراعية اشتراكية سوف تجد في شخصية دافيدوف رفيقاً مناضلاً، وتجربة كبرى من أجل تحقيق هذه الأهداف، وقال الشاعر إدوارد ميجيلايتس بهذا الخصوص ما يلي:

«لقد ترجمت رواية «الأرض البكر حرثناها» إلى اللغة الليتوانية بعد الحرب العالمية الثانية في بدء مرحلة إنشاء التعاونيات الزراعية في القرى الليتوانية، وإنني شاهدت بأم عيني كيف كان يطلب الكولخوزيون الأدوات والآلات ـ الزراعية الضرورية ومعها يطلبون رواية «الأرض البكر حرثناها»، إذ أنهم كانوا يصرحون في الإجابة على سؤال لماذا تلزمكم هذه الرواية بقولهم: «إن شولوخوف يساعدنا في تنظيم التعاونيات»».

وفي واقع الأمر أنه في أي مكان تقوم فيه الصراعات الطبقية بين فئات الإقطاعيين والملاكين العقاريين الكبار من جهة، وبين الكادحين من عمال وفلاحين زراعيين، يجد هؤلاء الأخيرون في رواية «الأرض البكر حرثناها» خير مرجع يرشدهم إلى إتباع الطريق الصحيح، ويعتبر دافيدوف مثالاً يحتذى به في النضال من أجل انتصار قضية تنظيم التعاونيات الزراعية حسب الأسس الاشتراكية.

ويستمد ميخائيل شولوخوف أفكاره وغنى صوره والانسجام بين الإنسان والطبيعة من الفلكلور الشعبي الروسي القديم، وبين سطور روايتيه الملحميتين

«الدون الهادئ»، «الأرض البكر حرثناها» يقرأ الإنسان الحكمة الشَّعبية التي ينطق بها أبطال هذه النتاجات على اختلاف أفكارهم ومعتقداتهم، ومن خلال إرادتهم الفولاذية يعود الإنسان بذاكرته إلى الأبطال الفولكلوريين، الذين زادوا عن حياض الأرض الروسية بدمائهم، وعندما قال مكسيم غوركي عن شولوخوف «إنه كاتب جديد وحقيقي» كان يقصد أنه أخذ من التراث ما أخذ وعكسه في قالب جديد يتناسب مع الأفكار العلمية الجديدة، وبما فيه خدمة للعصر، وأنه كاتبٌ عصري ومعاصر، إذ أن القضايا الإنسانية التي تناولها هامة للأجيال الحاضرة والمقبلة، لهذا فإن رواية «الأرض البكر حرثناها» أقوى من أي كتاب مدرسي يتحدث عن الحياة السوفييتية خلال هذه الفترة، ومن خلال هذه الرواية بالذات يتعرف سكان مختلف بلدان العالم إلى حياة الشعب الروسي، وكيف جرى النضال من أجل الحياة الجديدة، ومن أجل ماذا، وكيف تلاحمت صفوف المناضلين من القوى الشعبية بعد أن حررتها الثورة، وأية إمكانات وطاقات تفجرت في الإنسان ضمن ظروف العمل الإبداعي الحر، وبما فيه مصلحة المجتمع عامة.

وبغضِّ النظر عن أن دافيدوف وناغولنوف يستشهدان فإن أعمالهما تبقى خالدة، والأهداف التي ناضلا من أجلها قد أصبحت حقيقةً راسخةً، إذ تتطور وتزدهر الجمعيات التعاونية التي ناضلا من أجل تكوينها.

هم دافعوا عن وطنهم:

لقد شغل موضوع الحرب العالمية الثانية التي تمركزت أحداثها بشكل أساسي على الجبهة الألمانية الروسية اهتمام الكثيرين من الكتاب السوفييت، وشكلت الحرب نقطة انعطاف حادة بالنسبة للكتاب الذين كانوا شباباً واتجهوا إلى الجبهة وشاركوا في أحداثها الدامية بأنفسهم مدافعين عن أراضي بلادهم السوفييتية، والعالم يعرف أن الاتحاد السوفييتي قد فقد ما يقارب

العشرين مليوناً من مواطنيه، ويندر أن توجد أسرة لم تفقد أحد أفرادها، بينما هناك أسر أبيدت عن بكرة أبيها.

وكان ميخائيل شولوخوف من الكتاب الأوائل الذين اتجهوا إلى الجبهة وشاركوا في الدِّفاع عن الوطن بسلاحين هامين، هما القلم والرشاش بآن واحد، وكان كل واحد فيهما يكمل الآخر.

وتمكن شولوخوف في أن يعكس حياة الشعب السوفييتي بمختلف فصائلهِ وشرائحه عبر النضال ضد قوى الظلم والعدوان الفاشية، ومن أهم المزايا والخصائص التي يتمتع بها الإنسان السوفييتي هي حبه لوطنه وتعلقه بأرضه، ويركِّز شولوخوف اهتمامه الأساسي على تصوير البطولة والتضحية عند الشخصيات التي تناولها في نتاجاته، ولهذا تمكن هذا الكاتب من أن ينفذ بنظره الثاقب إلى طبيعة وسمات الأفراد وسيكيولوجيتهم وعوالمهم كنماذج حية من الشعب السوفييتي، واكتشف المواهب الكثيرة والمتعددة لدى أبناء الشعب، وصورها تصويراً صادقاً في رواية: «هم دافعوا عن وطنهم» وأقصوصة «مصير إنسان» وغيرهما من النتاجات الأدبية ذات المواضيع الوطنية.

ففي رواية «هم دافعوا عن وطنهم» يصف المؤلف بدقةٍ أدبيةٍ وتقنيةٍ رائعةٍ الأحداث التي دارت في إحدى المناطق من الجبهة الطويلة والعريضة، إذ يتناول نضال بعض المقاتلين الأبطال، ويصفهم بكل ما يتسمون به من ميزات إنسانية، إن الشخصية الإنسانية الأساسية في الرواية هي البطل لوباخين الذي يجنده الكاتب على غيره من الشخصيات في الرواية لما يمتاز به من قوة إرادة لا حدود لها، وحب للدفاع عن الوطن والتضحية بكل ما يملك من قوة، والتحلي بأجمل الصفات الإنسانية والأخلاقية، وتتحصر اللحظات المأساوية في الرواية في تراجع المقاتلين السوفييت تاركين خلفهم الأراضي المحببة لقلوبهم، ويمتاز لوباخين بالعنف أحياناً وبروح الطرفة أحياناً أخرى، وهذا يدل على الغنى الروحي لعالمه. إذ غالباً ما كان رقيق القلب والعواطف ولكن ذلك لم يؤثر على صلابته وقوة

إرادته في المعارك الضارية، إن شولوخوف يعكس من خلال الشخصيات الأدبية في روايته هذه مصير الشَّعب الملحمي وخاصةً بوصفه الدقيق لها.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الرواية «هم دافعوا عن وطنهم» كانت، وما تزال سمفونية خالدة تروي لنا حياة الجندي المحارب في القتال، وفي الاستراحة بين المعارك، ومن خلال ذلك يبين المؤلف ما يمتاز به كل فرد على حدة من نواحي القوة والضعف الإنساني فبالنسبة للبطل الأدبي لوباخين نجده رقيق المشاعر والعواطف ولكنه يحتفظ بقوة إرادته، حيثُ لم يظهر عواطفه وإحساساته الداخلية الخزينة حتى لا يؤثر على زملائه، وغالباً ما كان يلجأ إلى المرح واستخدام الطرف حتى يضفي جواً مناسباً بين رفاقه، الذين عانوا معاناة كبرى في المعارك، التي خاضوها وعاشوا جحيمها متعاونين في السراء والضراء.

مصير إنسان:

لا يجوز للباحث، الذي يتناول نتاج ميخائيل شولوخوف بالبحث والدراسة، إلا وأن يتناول قصته القصيرة «مصير إنسان»، التي أخذت حيزاً في مكتبة الأدب العالمي الإنساني واحتلت مكاناً هاماً فيها، وعلى الرَّغم من صغر حجمها فإن هذه الأقصوصة قد عكست ليس مصير إنسان مُقاتلٍ واحد، هو اندريه ساكالوف، بل حياة جيش كبير من الناس الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية وتعرضوا خلالها للأسر وأصيبوا بالجراح الخطيرة فيزيولوجياً ومعنوياً، وعادوا إلى قراهم ومدنهم ليبدأوا الحياة من جديد في ظروف سلمية.

لقد ذهب اندري ساكالوف إلى الجبهة تاركاً زوجته وأولاده الأطفال، وعانى ساكالوف أشد ما بإمكان الإنسان أن يعانيه من عذاب الأسر عدَّةِ مرات، والجروح على اختلافها، والهرب من الأسر، والقبض عليه من جديد، والأعمال الشاقة، والحكم بالإعدام عدة مرات، ولكنه كان ينجو بصعوبة ويهرب من الأسر ويعود إلى الجيش السوفييتي ليشارك في عملية دحر الجيوش الفاشية

وردها على أعقابها، والقضاء عليها في عقر دارها برلين، ثم يعود إلى قريته ولكنه يجدها مهدمة، وبصعوبة يعرف مكان بيته، إذ سقطت على البيت إحدى القذائف فحولته إلى أنقاض، واستشهد جميع أفراد الأسرة، وهنا يصل إلى لحظة حرجة من حياته، ولكنَّهُ بفضل قوة إرادته وشخصيته يتغلب على هذه المصيبة، فيجد صبياً يتيماً يتبناه وينخرط في الحياة المدنية ليساهم في تعمير ما هدَّمته الحرب، وتطوير المجتمع الاشتراكي.

بالطبع من الصعب تلخيص هذه الأقصوصة لأن كل كلمة فيها قد وضعت في مكانها المناسب حتى أصبحت كالعقد الفريد من نوعه، فضياع أية حبة من حباته تؤثر على جماله وحسن بديعه، ولكننا قصدنا من خلال هذا الموجز المختصر للموضوع القول أن شخصيات شولوخوف، التي صورها في نتاجاته هي خلايا من جسم المجتمع الحي، وتمثل الأكثرية الساحقة من أبنائه، وتعكس المشكلات الاجتماعية والوطنية الأساسية، التي عانى منها الشعب السوفييتي عامةً، وأقصوصة «مصير إنسان» ذات طابع تراجيدي ملحمي، استفاد المؤلف في تأليفها من التراث الأدبي الروسي في القرن التاسع عشر وخاصة من الفن القصصي عند تشيخوف.

هذا، ومن خلال هذه القصة القصيرة عكس شولوخوف ليس مصير اندري سوكولوف وحده، بل مصير الملايين من أبناء الشَّعب السوفييتي، الذين يشابهون اندري، من حيثُ الطَّبائع والسِّمات الإنسانية والحب للوطن والثقة بالنصر رَغم الصعاب، وقوة الإرادة أمام الصعاب والمصائب، التي حلَّت به على أيدي الفاشيست الظالمين، وأنَّ المعاناة، التي عانى منها اندري سوكولوف كافية، بل تزيد من أجل أن تحطم الإنسان وإرادته، ولكن الصعاب لم تنل من إرادته وقوة بأسه، بل على العكس تماماً فلقد قوي عوده، واشتدت إرادته قوةً وبأساً، وأصبح إنساناً أعظم خلقاً وأرحب صدراً، وأكثر إنسانية مما كان عليه من قبل، وأصبح أكثر استعداداً لمساعدة الناس ومنحهم حبه وثقته،

ويتضح هذا من خِلال حبه الكبير للطفل الصغير، الذي قذفت به الحرب ليفتش بين القاذورات عن أي شيء يقتات به فاحتضنه بحبه ودفء جناحه، وزرع في نفسه المُثل العالية والأخلاق الجيدة، حتى يكون ممثلاً ناجحاً للجيل الجديد، الذي ولد ممثلوه خلال الحرب وبعدها، الجيل الذي عليه أن يعيش في ظروف السِّلم، وينصرف ليس للإعداد للحروب بقدر ما عليه أن يعمل بكل ما بوسعه من أجل إحلال السلم في كل العالم، ويصف شولوخوف اللقاء بين أندري سولوكوف والطفل بعبارات: «ألا تعرف يا فانيا من أنا؟» فسألني بصوتٍ متقطع: ومن أنت؟ فأجبته على الفور: «أنا أبوك».

«يا لروعة اللِّقاء! قفز عن الأرض إلى الأعلى وتشبَّثَ بعنقي، وأخذ يقبلني على وجنتي وجبهتي وشفاهي، وأخذ يغرد كعصفور صغير: «يا حبيبي، يا بابا، لقد كنت أعرف بأنك سوف تجدني، وها نحن سوية لقد انتظرتك طويلاً[91]».

وبكلمة، فإن نتاجات ميخائيل شولوخوف: «الدون الهادئ»، «الأرض البكر حرثناها»، «هم دافعوا عن وطنهم»، «مصير إنسان»، و«أقاصيص الدون» وغيرها، تمثل مرحلة متطورة في تاريخ الفكر الإنساني عامة، فالبعض من هذه النتاجات يستقطب اهتمام الناس للمحتوى الفني، الذي تتضمنه وبعضها الآخر يثير القارئ للمصير، الذي يحظى به كل بطل من الشخصيات الأدبية، وثالثهما يتمتع بموسيقى خاصة تتناوب فيها الصور وأنغام الحديث، وجميع هذه النتاجات تتمركز حول عكس الحقيقة العظمى للحياة، وفي صميمها حياة الشَّعب العامل، الذي يمثل الأكثرية الساحقة من المجتمع الروسي ـ السوفييتي».

زد على ذلك أن نتاجات الكاتب شولوخوف كانت تتمتع بالقيمة التاريخية، إذ أنها عكست شتى المراحل المتتالية من حياة المجتمع السوفييتي فرواية «الدون الهادئ» تصور أحداث فترة (1912 ـ 1922) بينما يعكس في «الأرض البكر حرثناها» التحولات الاجتماعية والثقافية في الثلاثينات، وتحتوي هذه على لوحة

[91] ميخائيل شولوخوف، قصة مصير إنسان، ص63 ـ 65.

واقعية للحياة التعاونية والمفاهيم الاشتراكية في تلك الفترة، بينما يعكس في رواية «هم دافعوا عن وطنهم» وأقصوصة «مصير إنسان» أحداث الحرب العالمية الثانية وما بعدها، أما قصصه القصيرة فتناولت شتى المواضيع والمراحل الزمنية من تطور المجتمع، ولهذا وغيره يعتبر شولوخوف مؤرخاً أدبياً للحياة الروسية السوفييتية خلال فترة تقارب السبعين عاماً، ومن خلال ذلك يعكس الخلافات الجوهرية القائمة بين المفاهيم الاشتراكية والمفاهيم الرأسمالية بدءاً من غريغوري ميليخوف ـ بطل «الدون الهادئ» وحتى آخر نتاجاته الأدبية.

ويبقى نتاج الكاتب المشهور ميخائيل شولوخوف يحتل مكاناً بارزاً في الأدب العالمي ككل، وخاصة في أدب القرن العشرين لأنه ركّز في نتاجاته على عكس أهم المعضلات في الواقع المعاصر، ويبقى شولوخوف من أكثر الكتاب شعبية وإنسانية ويعتبر عن حق أحد المجددين في الأدب العالمي، كما يعتبر مكملاً عبقرياً لتقاليد غوركي في مجال تطوير أدب الواقعية الاشتراكية وتطوير هذا الفن الأدبي إلى مرحلة عالية في سلم الأدب العالمي.

ولقد برهنت الأيام والأعوام على عظمة نتاجات شولوخوف الواقعية، والتي ذاعت شهرتها في العالم أجمع، وكانت خير برهان على كذب ادعاءات البورجوازية وكتابها، وعدم صحتها نهائياً، وبعدها كل البعد عن الحياة العملية والواقع الفعلي، وخاصة أنهم أخذوا يروجون بأن مذهب الواقعية الاشتراكية قد أخذ بالانحدار، ولكن الأدب السوفييتي بسعته وعمقه قد دحض مثل هذه الادعاءات، وكانت نتاجات غوركي وشولوخوف وليونوف وتشنكيز أيتماتوف، ورسول حمزاتوف، وغيرهم، خير مثال على تطور هذا المذهب، هذا المحيط الذي لا ينضب، لأن الأدب السوفييتي، هو أدب الحياة والشعب.

هذا ويرى الكتاب التقدميون في شتى أنحاء العالم أن الأدب السوفييتي خير معين لتطوير آدابهم الوطنية، وليس بمقدورنا في هذا السرد الموجز إيراد الأمثلة والأقوال الكثيرة لمختلف كُتّاب العالم، من الذين أثنوا ثناءً كبيراً على أدب

obeikandi.com

الواقعية الاشتراكية واعترفوا بفضله على صقل مواهبهم وتجاوز النواقص والأخطاء في نشاطهم الأدبي، ولقد آمن الكثير من الكُتَّاب التقدميين في مختلف أنحاء العالم بهذا الفضل واعتبروا الكتاب السوفييت، الذين أشرنا إليهم أعلاه كمعلمين لهم في البحث عن الطرق الإبداعية والصور الخلاقة المتنامية مع تطور الفكر الإنساني ومواهبه.

ليونيد ليونوف:

ثمة كاتب سوفييتي آخر اشتهر ليس في الاتحاد السوفييتي فحسب، بل بعيداً وراء حدوده ونقصد به الكاتب ليونيد ليونوف، الذي اشتهر منذ صدور نتاجاته الأولى، وخاصةً بعد أن بدأ بالتأليف الروائي، وترجمت رواياته «الأغرة» (1924) و«الخلية» (1930) و«سكوتاريفسكي» (1932) و«طريق إلى المحيط» إلى مختلف لغات العالم . وتمتاز هذه النتاجات بسعة العالم الذي تعكسه، والتحليل العلمي الفلسفي، الذي يتبعه المؤلف.

ولقد قوم النقاد نتاج ليونوف فأعطوه درجة عالية، إذ وضعه بعضهم في مصاف الكتاب الروس الكلاسيكيين في القرن التاسع عشر أمثال بوشكين وليرمنتوف وتورغنيف وتشيخوف وغيرهم، ومن الممكن القول بأن ليونوف قد سار بالأدب السوفييتي مطوراً لأسس المدرسة الواقعية الاشتراكية التي وضعها الكاتب البروليتاري، مكسيم غوركي، ومصوراً للقضايا والمعضلات الاجتماعية تصويراً فلسفياً، معترفاً بالفضل الكبير لمكسيم غوركي الذي أنقذه من الوقوع في شتى الأخطاء والتأثير بالتيارات الأدبية أو الفلسفية المثالية في العشرينات.

إن استيعاب ليونوف لمذهب الواقعية الاشتراكية جعله يرتفع بنتاجه إلى مراحل عليا ويقترب من القمة الإبداعية، وأن يكون متميزاً كفنان، إذ تمكن من

obeikandi.com

المزج بين الصور الأدبية والنظريات الفلسفية الإنسانية.

ولقد تربى ليونيد ليونوف على التراث الروسي الكلاسيكي وعلى أيدي الكتاب المشاهير في العالم، وخاصة جي دي موباسان وأنطون تشيخوف ومكسيم غوركي وغيرهم، ويمتاز نتاجه بأنه قد عكس تطور الواقع من وجهة نظر ثورية، وفي هذا بالذات ينطبق نتاجه كلياً على الأسس المحددة للمدرسة الواقعية الاشتراكية، بل يعكس جوهرها الحقيقي كلياً.

ولقد أشار النقاد إلى الصعود المستمر في مسيرة الكاتب الإبداعية، فكل نتاج كان يشكل خطوةً هامةً إلى الأمام بالمقارنة مع النتاج السابق له، وخاصة أن القضايا الفلسفية التي ناقشها في بداية نتاجه، ولم تكن واضحة له كلياً، أصبحت في مرحلة لاحقة من حصيلة معرفته، وأصبح أكثر حنكةً وقدرةً على تناول هذه المسائل بسهولة وتصويرها للقارئ بوضوح كامل، وبلغة سلسة، بعيدة كل البعد عن الجمل الفلسفية المعقدة، وكتب مكسيم غوركي مشيراً إلى بعض سمات نتاج ليونوف فقال: «إنه فنان قدير، فهو لم يحدث مطلقاً، بل يصور دائماً، ويستخدم الكلمة كما يستخدم الرسام اللون... فإذا كان تولستوي قد صهر - إذا صح القول - كتبه من الحديد، وتورغنيف سكب كتبه من النحاس والفضة، فإن ليونيد ليونوف يعمل كصاهرِ معادنٍ من نوعٍ خاص، ففي وصف الكاتب ليونوف غالباً ما يلتقي الإنسان بصدى الأشعار الوجدانية، التي ألفها الشاعر الروسي تيوتشيف، وفي الخواطر والذكريات والمقالات، يتذكر القارئ نثر ليرمنتوف الممتاز بالدقة النهائية، لتعطى أفضل وأجود أنواع العمل.

ويتجه ليونوف في أعماله الأساسية الهامة إلى أعماق الوعي الإنساني، وهو في نتاجاته يتناول بالدرجة الأولى، ومثله في هذا مثل كتاب الواقعية الاشتراكية الذين سبقوه - الإنسان وكل ما يجري في عالمه من تغيرات وتحولات نفسية وتاريخية، محللاً الظواهر التاريخية من وجهة نظر المحلل السياسي والفلسفي، كما يتوجه في نتاجاته إلى شتى فصائل وفئات المجتمع على اختلاف أنواعها،

ومن خلال ذلك يعكس الأعمال والحرف التي يمارسونها، آخذاً بعين الاعتبار أن الشخصيات الأدبية في نتاجه الأدبي غير قائمة على الخطط المسبقة، أو القوالب الجاهزة، وهو بعيد كل البعد عن أن يعطي أياً منهم أكثر مما يستحق، وأن يكسيه بالحلل والألبسة الفاخرة والألوان البرَّاقة، بل غالباً ما نجده يعكس الأناس على طبائعهم الواقعية، وبكل ما يمتازون به من تناقضات داخلية، ولكن هؤلاء الأفراد، هم أناس منفتحون على الحياة، ولديهم الاستعداد الكامل للنمو والتطور، والتخلص من الهفوات والأخطاء وتجاوزها، ولدى هؤلاء الإمكانية للاستفادة من حياة الشعب، وحكمته، وتجاربه.

الأغرة:

ومما أفاد الكاتب ليونوف، أنه كان قريب من حياة ومعاناة المثقفين، وكافة الجماهير الشعبية، وبشكل خاصٍّ من الفلاحين، حتى أنه في كثير من الأحيان وعند اجتياز المواضيع، كان ينطلق من موقع الفلاحين ومن طرق تفكيرهم المميزة، ويتضح هذا بشكلٍ كُلي من خلال رواية «الأغرة» التي كتب مكسيم غوركي عام 1925 عنها ما يلي: «إن هذه الرواية هامة للغاية وممتازة المستوى، وهي تثير أعماق المشاعر الإنسانية، ولم أجد في مكان ما منها، وعلى امتداد صفحاتها الثلاثمائة مكان ضعف، ولم أجد أي ابتعاد عن مذهب الواقعية الاشتراكية أو أي (تصنع) يذكر، مما تعود عليه بعض الكتاب عند الكتابة عن الريف، وخاصة عند وصف الفلاحين، وبكلمة فإن هذا الكتاب رائع جداً، وسوف يكتب له البقاء لمدة طويلة...»[92].

إن رواية «الأغرة» التي يجري الكلام عنها هي رواية اجتماعية واقعية، وفيها حاول المؤلف أن يجسد نظرته الفلسفية بالنسبة للحياة، وتدهش الرواية القارئ

[92] غوركي م. المؤلفات الكاملة في 30 مجلد، المجلد 29، موسكو 1955، ص441. 442.

بكثافة المواضيع الاجتماعية السيكولوجية، والأحداث الكثيرة وتعدد الشخصيات، وفيها يعكس المؤلف تلك التغيرات الاجتماعية، والصدامات الحادة للسنوات الأولى من الثورة، وخاصة تلك الأحداث الدامية، والصراع التناحري بين الحديث والقديم، كما يتكلم الكاتب ببساطة وواقعية لا متناهية، وعلى شكلٍ فريدٍ من نوعه، كيف حصلت تلك التغيرات تحت تأثير هذا الاتجاه الثوري الجديد، وأصبحت المفاهيم تنقلب رأساً على عقب، فتنقرض المثل القديمة البالية، وتتكون المثل والقيم والأخلاق الجديدة القائمة على ما هو جيد في الماضي، مع الاستفادة من الأفكار والنظريات الثورية المعاصرة.

ومن الجدير بالذكر أن ليونيد ليونوف قد ألف هذه الرواية وهو في سن الشباب، ولذلك نجد فيها روح الشباب، المتفائلة الشجاعة، حيث سجل الانطباعات منذ أيام الطفولة والتي ما زالت متأججة في نفسه مبيناً العلاقة بين القرية والمدينة، ولقد حملت هذه الرواية الملحمية الهائلة في صفحاتها الكثير من مقومات الرواية الاجتماعية الروسية في أشكالها الكلاسيكية المختلفة، ولكنها كانت تتسم بميزات النثر في القرن العشرين، وكأن هذه الرواية وغيرها من روايات ليونوف عبارة عن سبيكة متناسبة الأطراف توجد بين الفن التصويري والوصفي والفن الشعري الوجداني بما فيه من أشكال الاستعارة، والإيقاع الموسيقي.

ويعتبر ليونوف أنه مدين في حياته الأدبية لتلك الأحداث الهامة، التي التقى بها عند عتبة الحياة عندما يقول: «إن حياتي قد بدأت ككاتب، منذ مولد الثورة الاشتراكية، واشتد عودي في الحرب الأهلية»، وفي حقيقة الأمر فإن ليونوف دخل الحياة العملية في هذه الفترة بالذات إذ كان قد بلغ من العمر وقتها ثمانية عشر عاماً، وعند هذه السن اتجه إلى جبهة القتال، ولهذا ينطلق المؤلف من تجربته الخاصة واصفاً المصاعب والمشاق الكثيرة التي ورثها جيل الثورة عن العالم القديم، ونلتقي في رواية «الأغرة» الشخصية الأدبية سيميون راخليف

الفلاح الذي يتمسك إلى أبعد الحدود بملكية الأرض، التي يمتلكها وتصل به هذه القضية إلى درجة كبيرة من الأنانية، حتى يصبح لا يرى لحياته أية قيمة كانت دون الملكية الخاصة، ويصل بقناعته إلى أنه يقف في الصف المعادي للثورة الاشتراكية، ويذكرنا هذا الموقف في رواية «الأغرة» برواية «الدون الهادئ» عند شولوخوف وبموقف البطل الأدبي غريغوري ميليخوف ويصل الأمل بالبطل راخليف إلى درجة حمل السلاح ضد الثورة دفاعاً عن ملكيته الخاصة.

أما في رواية "الخلية"، فيحدثنا المؤلف عن التحولات الهامة في الحياة السوفييتية وكيف كان الحماس الوطني الثوري في أوجه، وخاصة في مجال البناء والإعمار، واستصلاح الأراضي في المناطق البعيدة، ويبين المؤلف كيف بإمكان الإنسان التغلب على الصعاب الكثيرة فيقول: «إن الإنسان صانع المعجزات».

بينما يتناول المؤلف في رواية «سكوتاريفسكي» موضوعاً جديداً من خلال الانعطاف الثوري الجديد وهو موضوع المثقفين فيحكي لنا كيف وفرت الثورة للعلماء وكافة المثقفين جميع الظروف المناسبة لعملهم الإبداعي العلمي.

وكيف أن النظام الاشتراكي، هو النظام الوحيد الذي بإمكانه أن يؤمن للعلماء والأكاديميين الجو المناسب لممارسة العمل العلمي بكل راحة.

أما في رواية «الطريق إلى المحيط» فيصور لنا المؤلف نضال الشعب السوفييتي من أجل تحقيق الأهداف الاشتراكية ويسير بنا نحو القاعدة المادية لتطبيق المرحلة العليا من الاشتراكية.

وتعكس مسرحية «الغزو أحداث الحرب العالمية الثانية والصراع العنيف بين الخير والشر، وبين قوى الظلم والعدوان النازية الغازية من جهة، وبين قوى التقدم والاشتراكية المدافعة عن أراضيها من جهة أخرى، كما يعكس الغضب الذي تفجر كالبراكين في قلوب وعقول أبناء الشعب السوفييتي ضد قوى الغزو، ويبين المؤلف أُسس الوحدة المتينة بين كافة أبناء الشعب، والتي لعبت دوراً هاماً وحاسماً في تحقيق النصر النهائي على الفاشية النازية الهتلريَّة».

هذا ويعكس المؤلف مسألة النضال من أجل السلم العالمي، ويعتقد أنه في الوقت الذي يتم فيه النصر على قوى الفاشية السوداء، يجب أن تتحول الجهود للنضال من أجل السلم العالمي والحد من انتشار الأسلحة النووية والفتاكة والوقف من عملية سباق التسليح، ومنع نشوب أية حرب كانت.

الغابة الروسية:

نرى أنه من الضروري التوقف أيضاً عند رواية ليونيد ليونوف الشهيرة «الغابة الروسية» التي تمثل وتعكس واقعاً حياً من النضال والنشاط الإنساني المرتبط بالطبيعة الروسية الفنية، وبالغابة على وجه التحديد، ولقد أجمع النقاد على أن هذه الرواية تعكس عصراً بأكمله، يزيد عن نصف قرن تقريباً، وتشكل هذه الرواية ظاهرة هامة في الأدب الروسي.

وبغضِّ النظرِ عن الأعمال الأدبية النقدية عن هذه الرواية، فهي ما تزال حتى الوقت الحاضر موضع اهتمام الكثير من الدارسين في مجال النقد الأدبي لمتابعة الكشف عن بعض معالمها الغامضة.

ومن أجل تفهم هذه الرواية تفهماً صحيحاً لا بد من العودة إلى تاريخ المجتمع السوفييتي، والتعرف إلى معالم الطبيعة الروسية، والاطلاع على نتاج الكاتب ليونوف السابق لهذه الرواية، وتجدر الإشارة إلى الغابة الروسية، التي اختاره ليونوف حتى يكون عنواناً لروايته له وقع خاص في نفوس أبناء الشعب الروسي أو كل من عاش واطلع على طبيعة الغابة الروسية، التي لها قدسية خاصة في مشاعر وخواطر الناس الروس، بدءاً من الهواء الممزوج بأريج الصنوبر والسنديان حتى الفقوع (الفطر) الذي ينمو بكثافة تحت الأشجار الكثيفة، والغابة الروسية كانت موضوعاً شيقاً للشعراء والكتاب والصيادين و عامة الناس لما تحتويه من ثروة نباتية وجمالية وتنوع في الأشجار والحيوانات على اختلاف

obeikandl.com

أنواعها، ولا عجب أن يسمي الكاتب المثقف المحب للغابة الروسية روايته بهذا الاسم.

إن بطل هذه الرواية من العناصر الفريدة من نوعها والتي ساهمت مساهمة فعالة في الثورة، وتحقيق أهدافها، وعمل كل ما في وسعه من أجل أن تساهم هذه الثروة الروسية الطبيعية المتجسدة في الغابات بدورها الهام في الاقتصاد الاشتراكي، وخاصة في مجال تزويد البلد بالطاقة والخامات والسيللوز الطبيعي، وليس هذا فقط بل الهواء الطلق المفيد للصحة أيضاً، وتشكل الغابات الروسية سدوداً منيعةً في وجه الرياح القادمة من الغرب، والتي كان بإمكانها لولا الغابات أن تسيء للمحاصيل الزراعية، ولكان نسيم الصقيع لا يطاق، وقد لعبت الغابات الروسية دوراً هاماً في حماية المدافعين الأنصار من هجمات الأعداء على اختلاف أنواعهم، وكانت درعاً وقائياً في كافة الحروب.

تناول ليونيد ليونوف هذا الموضوع الشائك والمعقد ووضعه على بساط البحث الروائي بأسلوبٍ شيِّق، وكان سباقاً في الكلام عن العلاقة الجدلية القائمة بين الإنسان والطبيعة، بلغة فلسفية منطقية، مبيناً النواحي العفوية في التصرفات والمواقف القائمة على العقل والمنطق والمعرفة من خلال العودة إلى الماضي والنظر إلى المستقبل بعيون مفتوحة وثاقبة.

ولقد شغل موضوع الغابة الروسية تفكير المؤلف فترة طويلة مِن الزَّمن، ولهذا بالذات جعل المؤلف العمل الأساسي لأبطال روايته هذه هو، الاعتناء بالغابة والإشراف عليها، وكان هذا الموضوع قد شغل فكر المؤلف فترةً طويلةً من الزمن إذ إنَّ المؤلف عاش في طفولته مع جده في المنفى في منطقة أرخانغلسك، وهناك تمتع بالغابات الروسية الرائعة، واهتم بدراسة ظواهر الطبيعة، وشتى النباتات.

ولقد جاءت هذه الرواية لتصل بالكاتب إلى درجة القمة في مجال الإبداع الأدبي، إذ أن الصور الواقعية، التي جاءت فيها صور فنية رائعة سوف تذكرها

obeikandl.com

الإنسانية لفترة طويلة.
وتمتاز هذه الرواية بدقتها التاريخية وغوصها في العالم النفسي حسب أصول المدرسة الواقعية، مستخدماً الحوار والنقاش، الذي يدور بين علماء النبات وتربية الغابات، ولقد وصل الأمر بالصديقين فيخروف وغراتسيانسكي إلى أن يصبحا متناقضين كلياً لأنهما يختلفان حول عدة نقاط أساسية وينتصر في النقاشات العالم فيخروف، ومن معه من العاملين في تربية الغابات وحمايتها.
كما يتناول النقاش بين فيخروف ومعارضيه مسائل الشباب العاملين في مجال تربية الغابات ورعايتها، إن الظروف التاريخية في الثلاثينات والأربعينات ساعدت فيخروف وجماعته في أن ينطلقوا من مواقع قوية في نقاشاتهم، لهذا يبين المؤلف أن الحياة الكريمة هي من حق الذين يناضلون! ليس من أجل مصالحهم، بقدر ما يعملون من أجل مستقبل المجتمع الأفضل بشكل عام، ويعملون للحفاظ على الموارد الطبيعية الغنية، التي تزيد الحياة جمالاً وبهاءً، ويستمر الصراع بين هذين الجانبين على امتداد الرواية، وحتى النهاية، ومن خلال شخصية غراتسيانسكي عكس ليونوف عالم الإنسان الوصولي المصلحي، وانتقد من خلال أحداث هذه الرواية الأسلوب الوصولي والاستغلالي الأناني النفعي لبعض الأشخاص، الذين ينظرون حتى للطبيعة الرائعة المتمثلة بالغابة الروسية من زاوية مصالحهم الخاصة، ولقد أبرز الجذور التاريخية لمثل هؤلاء، إذ أنهم يعودون من حيث الأصل والنسب على الأرستقراطية الروسية القديمة، من أولئك الذين كانوا على علاقة متينة بالسلطة القيصرية التي لم تُعر الثروة الطبيعية وبشكلٍ خاص ثروة الغابات ما تستحقه من اهتمام ورعاية قدسية.
ومن خلال شخصية فيخروف يطلع القارئ على أسمى الميزات الشَّعبية الثورية في الأجيال السابقة ومنها التواضع، والديمقراطية الحقة، وشعور الواجب كأهم مبدأ في السلوك الاجتماعي، وشجاعة الإنسان في الريف، وعدم الاكتراث بالتقويمات اللاإنسانية، والتصريحات اللامَسؤولة، والكلمات الطنانة، ولقد

عكس المؤلف من خلال شخصية فيخروف ومعارضيه الصراع بين الخير والشَّر، وتغلُّب الشر أحياناً على كل ما هو جيد وعظيم في روح الشَّعب، إلا أن هذا (النصر) كان بالنسبة للأنصار نصراً عابراً لا قيمة له نهائياً، ويعكس المشاعر والإحساسات المتدنية عند الناس من ذوي الثقافة المنحطة.

ومن الجدير بالذكر أن رواية «الغابة الروسية» ليست رواية تاريخية، ولكنها بمثابة رواية ملحمية تعكس الواقع وتضع الأطر للمستقبل الأفضل، وهي بمثابة المفتاح للحاضر والمستقبل معاً، وحتى يتفهم القارئ هذه الرواية جيداً عليه أن يتعمق في العلاقة الديالكتيكية القائمة بين الإنسان والطبيعة الرائعة، والعمق التاريخي بين الماضي والحاضر والمستقبل، كما يجب أن يتفهم القارئ كل جملة على حدة، لأن في مقولات ليونوف تلخيص فلسفي مكثف للفكر الإنساني حول التطور في القرن العشرين.

ويعكس المؤلف من خلال تصوير الغابة الروسية العلاقة المتينة القائمة بين الإنسان الروسي والغابة الروسية، إذ أن البطل فيخروف منذ الصغر وحتى الكبر كان يرى في هذه الغابة الثروة الحقيقية غير المحدودة للشعب الروسي، وفيها يرى سعادته وراحته، وفيها يرى الصديق الوفي الذي يدافع عنه في أقسى الظروف، عندما يرى الأيادي الآثمة المتمثلة بشخص غراتسيانسكي تمتد إلى أشجار الغابة محاولة أن تقطع بعضها لما في ذلك مصلحته الخاصة، وأنانيَّتهُ.

وثمة كلمة مفادها، أن الحماس الشعبي في رواية «الغابة الروسية» ينطلق من الإنسانية المثلى، والصراع الديالكتيكي في عكس السمات والمميزات الأساسية، بما يتناسب مع الظروف التاريخية الجديدة، ولقد تمكن ليونوف من الوصول إلى هذا معتمداً على منجزات المدرسة الواقعية في الأدب الروسي ـ السوفييتي بدءاً من دوستويفسكي وتولستوي وانتهاء بغوركي وميخائيل شولوخوف وكانت رواية «الغابة الروسية» تمثل قمة الوحدة الرائعة بين الثقافة الروسية الروسي في القرن التاسع عشر ومنجزات العلم والأدب والحضارة

السوفييتية في القرن العشرين، وهذا وغيره يمكّن القارئ من الاطلاع بعمق على بانوراما الحياة الروسية متعددة الجوانب.

ويعتبر المؤلف روايته «الغابة الروسية» أكثر أعماله نجاحاً، ولهذا يفضلها على غيرها لأنه قد عكس فيها أهم مبادئه وأهدافه الحياتية والإبداعية، وفيها عكس علاقته بالشعب الروسي، وحماسه الوطني، والعلاقة المتينة بينه وبين الثقافة الوطنية، وتمتاز هذه الرواية بأهمية خاصة حسب رأي العقّاد - لأنها جاءت كخاتمة لبحث ليونوف عن الطرق الإبداعية الجديدة في العمل الروائي. وخاصة الأسلوب الإبداعي المتجسد في السبك بين التعبير الواقعي عن الحياة وبين التصوير الملحمي للحياة الشعبية، وتنطبق هذه الرواية على مقولة ليونوف: «كل عمل أدبي يجب أن يكون خلاقاً في الشكل، واكتشافاً في المضمون[93]».

ولقد ترجمت نتاجات ليونيد ليونوف إلى الكثير من اللغات العالمية، ولم تترجم لبعضها الآخر، لتخوف المترجمين القيام بترجمة مثل هذه النتاجات الهامة، ليس لصعوبة اللغة وحسب، بل لعمق المعاني والأفكار الفلسفية التي تحتويها هذه النتاجات.

ولقد ترجمت بعض أعمال ليونوف إلى اللغة العربية منذ الثلاثينات، وأثرت كما أثرت نتاجات غوركي وليونوف في تطوير الثقافة العالمية والأدب الواقعي الاشتراكي، ونشوء الفكر التقدمي في الكثير من البلدان النامية ليس بين القراء وحسب، بل وبين الكتاب أنفسهم، إذ نجد الكثير من المقولات لدى الكتاب العرب يمتدحون، فيها نتاج ليونوف ويركزون بشكل أساسي على قدرته الكبيرة في مجال الوصول إلى أعماق النفس البشرية، وتصويرها تصويراً واقعياً بكل ما فيها من دقائق، وكثيراً ما أطلق النقاد عليه «دوستويفسكي القرن العشرين».

ويضيف ليونوف: «هذا صحيح ولكن من وجهة نظر واقعية اشتراكية، وبما

---

[93] ليونوف ل. في جريدة «روسيا الأدبية» 1964، 13 تشرين ثاني، ص5 (باللغة الروسية).

يتناسب مع التطور الثوري لمجتمعنا السوفييتي».

وإن دلَّ هذا على شيء فهو يدل على الالتزام الكبير، الذي يلتزمه الكاتب ليونوف بقضايا شعبه المصيرية، حتى أنه لا يرى لنفسه أية قيمة تذكر إلا من خلال المجتمع ككل، ولم يشعر حتى آخر حياته الطويلة نسبياً أنه قد ابتعد عن الشَّعب للحظة ما، وكان يشبه غوركي وشولوخوف إلى حدٍّ بعيد من حيث المصير الأدبي: «فبقدر قربه من الشَّعب والتصاقه به، كان يزداد إبداعه قوة ومناعة» وهذا وغيره هو الذي سيخلد نتاجاته الأدبية على اختلافها، كما سيدفع الأجيال القادمة إلى تخصيص مكان هام لتراثه في مكتباتهم.

obeikandl.com

تَكوُّن بعض عناصر المدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين

تكلمنا في الفصل الأول من الكتاب عن تأثير الأدب الروسي الكلاسيكي على تكون الأفكار الواقعية عند بعض الكتاب العرب في بداية القرن العشرين ومن الضروري الكلام هنا عن فترة الأربعينات والخمسينات منه، إذ برزت الظروف الملائمة لتعرُّف القراء العرب عامة والسوريين خاصة على الأدب السوفييتي، ففي العشرينات والثلاثينات تصاعد النضال التحرري وعمَّ جميع أقطار الوطن العربي، وشملت هذه النهضة الوطنية جميع جوانب الحياة القومية والاجتماعية والثقافية، ولقد أصبحت سورية من أهم المراكز التحررية في بلدان «العالم الثالث»، وهي من الدول الأولى في العالم التي حصلت على استقلالها السياسي، كما أنها من أولى الدول في منطقة الشرق الأوسط، التي كان بإمكانها التعرف على الأفكار الاشتراكية وإقامة علاقات جيدة مع الاتحاد السوفييتي، وكانت سورية من أكثر الدول العربية نشاطاً وتحمساً لإقامة الوحدة العربية، والقضاء على الحدود المصطنعة التي أقامها الاستعمار العثماني والاستعمار الحديث على أنواعه فيما بين الدول العربية لإضعافها وقهرها.

وغالباً ما نجد أن القضايا السياسية قد انعكست بشكلٍ مباشرٍ وغير مباشر على مفاهيم الكُتاب إذ أنهم كانوا وما يزالون الفئة الأكثر ثقافةً ووعياً وشعوراً بالمسؤولية بين الفئات الشَّعبية.

ولذلك غالباً ما نجد الصيحات والنداءات عند هؤلاء الشعراء والكتاب العرب وهم يدعون إلى الوحدة العربية، وأكَّدَ ساطع الحُصري أحد أعلام النهضة الأدبية الحديثة على هذا الهدف الوطني إذ قال: «لا أدري فيما إذا كان ما بقي لي من العمر سيسمح لي بإدراك ذلك اليوم الذي ستحقق فيه الوحدة العربية،

obeikandi.com

فسأعتبر نفسي أسعد الناس جميعاً، وسأنسى ما كابدته من مشاقٍ وآلامٍ، وسأترك هذه الدنيا راضياً مُرتاحاً، كأني لم أتعب أبداً ولم أشعر بذرَّةٍ من ألم[94]».

ولقد تأجَّجَ هذا الشُّعور الوطني والإنساني بشكلٍ عفوي، في قلوب الملايين من أبناء الشَّعب العربي، ولكنَّ البعض لم يدركوا الطريق الصحيح لتحقيق هذه الطموحات في تلك الفترة، والأقلية النادرة جداً كانت تدرك أن الأعمال الوحدوية تتطلب القيام بثوراتٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ وثقافية على التخلف الموروث منذ القدم، والتخلص من الجهل والأمية في كُلِّ بلد على حدة ثم التقارب والتعاون والتنسيق من أجل توفير الظروف المناسبة لقيام الوحدة العربية، وكان هؤلاء المنورون يدركون أبعاد الصراع بين هذه الأنظمة الملكية والديكتاتورية والجمهورية، وكانوا على ثقةٍ أنه من الصعب تحقيق هذه الوحدة بين مثل هذه الأنظمة المتصارعة.

وخلال هذه المرحلة بالذات ارتقى الأدب العربي السوري بنثره وشعره إلى درجةٍ جيدةٍ نسبياً حتى أخذ يلعب دوراً هاماً في بثِّ الروح الوطنية والإنسانية في الوطن العربي عامة، وأخذ الكتاب على عاتقهم نشر الفكر التحرري وقيادة المظاهرات والإضرابات وكافة النشاطات الوطنية في النِّضال ضد الاستعمار الفرنسي والإنكليزي اللذين بسطا نفوذهما بشكلٍ قويٍ على المنطقة العربية.

وفي أواسط الثلاثينات، وتحت تأثير حركة التحرر الوطني وتعاظمها تشكلت الاتجاهات الوطنية والديمقراطية في السياسة والثقافة على حدٍ سواء، وظهرت العديد من الصحف والمجلات، وفي مقدمتها مجلة «الطليعة» التي لعبت دوراً هاماً في عكس الفكر الوطني والتقدمي من خلال النتاجات الأدبية التي تمَّ نشرها في تلك الآونة الهامَّة، ومن بين هذه النتاجات كانت أقاصيص وقصائد ومقالات تناولت شتى المواضيع الاجتماعية والوطنية والسياسية والإنسانية، ولقد

---

[94] ساطع الحصري، آراء وأحاديث في القومية العربية، ص22.

امتازت هذه النتاجات عن غيرها بالطابع العلمي والمعالجة الصحيحة نسبياً للعديد من القضايا والمعضلات التي يعاني منها المجتمع في تلك الآونة التاريخية الهامة.

وتجب الإشارة إلى ناحيةٍ هامةٍ امتازت بها صحافة هذه الفترة، ألا وهي ترجمة الأدب الاشتراكي إلى اللغة العربية، وبشكلٍ أساسي نتاجات الكتاب الروس والسوفييت من الواقعيين النقديين والواقعيين الاشتراكيين.

أما في فترة الحرب العالمية الثانية فقد خاضت قوى حركة التحرر الوطني وفي طليعتها القوى التقدمية العالمية، والقوى التقدمية في البلدان العربية نضالاً مزدوجاً ومضاعفاً للحصول على الاستقلال التام، والانعتاق من كافة أشكال الاستعمار من جهة، والنضال ضد الفاشية النازية من جهةٍ أُخرى، فعمت الانتفاضات التحررية مختلف البلدان العربية وبشكلٍ خاصٍّ سورية ولبنان، وتأسست في كلا البلدين (عصبة النضال ضد الفاشية) منذ كانون الأول 1941، ونشر الكُتَّاب المناضلون ضد الفاشية مختلف المقالات التي تفضح حقيقة الفاشية، وطبيعتها العدوانية، وأفكارها العنصرية السوداء.

ولقد لعبت مجلة «الطريق» دوراً هاماً في هذا المجال، وعملت على جمع شمل الكُتَّاب التقدميين حولها من سورية ولبنان وكافة أقطار الوطن العربي، ومنذ صدور الأعداد الأولى لوحظ الاتجاه التقدمي لهذه المجلة، التي خصصت قسطاً هاماً من صفحاتها لمحاربة الفاشية، ورفع شعار النضال ضد التفرقة والتمييز العنصري والإبادة الجماعية، التي تبنتها الفاشية كأسلوبٍ لتطبيق أفكارها الأيديولوجية، ورفعت هذه المجلة شعار الصداقة بين الشعوب على اختلاف قومياتها وعروقها، والنضال من أجل السِّلم والتحرر.

كما نشرت مجلة «الطريق» العديد من أعمال الكتاب السوفييت خلال الحرب وبعدها، وبهذا تمكن القارئ العربي في تلك الفترة من الاطلاع وباستمرار على أقاصيص العديد من الكتاب المشهورين أمثال غوركي، وشولوخوف،

وسيمونوف، وكذلك على العديد من المقالات الأدبية والاجتماعية للكتاب إيليا اهرنبورغ، ليونيد ليونوف، وتيخونوف، وغيرهم.

ناهيك عن أن المقالات والملفات التي خصصتها هذه المجلة للكتاب الروس الكلاسيكيين قد ساهمت في صقل وتهذيب الطرق والأساليب الأدبية عند العديد من كتاب سورية الشباب في تلك الآونة أمثال ليان ديراني، وصفي البني، وحنا مينه وغيرهم، وخير مثال على صحة ذلك نجده على لسان المؤرخ الأدبي سامي الكيالي الذي قوم الاتجاه الوطني الحماسي الجديد في الأدب العربي السوري على الشكل التالي: «في السنوات التي أعقبت العام 1930، شعرنا بأننا نمثل الاتجاه الجديد في الأدب، والذي يختلف بالكثير عن الاتجاهات السابقة، وأننا نحن الجيل الجديد للشباب الناهض والواعي.

إن جيلنا من الكتاب لم يُكون نتاجات أدبية عالية، كما نرغب في أن تكون ولكننا قد تحررنا من التضخيم والمديح والرثاء والغزل، وأصبحت نتاجاتنا تقترب من الحياة الواقعية[95]».

وكما أُشير سابقاً، أن النضال الوطني المتصاعد في بداية الأربعينات قد أدى إلى مزيد من التقارب مع قوى التقدم والتحرر في العالم، واتسعت العلاقات الثقافية بين الدول العربية ذاتها من جهة، والعلاقات العربية السوفييتية من جهةٍ أخرى، ونتيجة هذه العلاقات تُرجمت العديد من النتاجات الأدبية الروسية - السوفييتية إلى اللغة العربية، ونتيجة لهذه العلاقات الثقافية استفاد الكُتَّاب العرب السوريون من التجربة الكبرى للأدب السوفييتي، كما أدى هذا إلى تكون بعض عناصر المدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي السوري.

وتجدر الإشارة إلى أن وصول الكتاب التقدميين إلى هذه الدرجة من التطور لم يكن مجرد مصادفة، بل على العكس تماماً، إذ أن الكُتَّاب التقدميين قد خاضوا صراعاً عنيفاً مع ممثلي الأيديولوجيا البورجوازية، وتمكنوا بعد الكثير

---

[95] سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية، دمشق، 1957، ص53.

من النقاشات من تحديد معالم الأهداف والمبادئ التي كانوا يصبون إليها، وبهذا تمكنوا من استقطاب اهتمام الكثير من الكتاب ورجال الفكر في العالم العربي.

لقد بدأ هذا الصراع الشديد من أجل تكوين الأدب العربي التقدمي العديد من البلدان العربية على استقلالها السياسي.

ومن أهم الأحداث في تطور الأدب الواقعي في سورية كان تكوين رابطة الكتاب السوريين عام 1951، والتي ضمت الكتاب التقدميين الذين رأوا في الأدب سلاحاً فعالاً في النضال من أجل التحرر الوطني، والانعتاق السياسي للشعب، وفي هذا المجال بالذات كانت أهمية الكاتب في المجتمع كبيرة للغاية.

المثل الانسانية للأدب العربي:

ومن أهم الميزات للأدب العربي في سورية أن الكثيرين من المفكرين والكتاب والشعراء، لم يقيدوا أنفسهم ضمن أُطر الشعور القومي والشوفيني المتعصب وضيق الأفق، بل كانوا يرون أن القومية العربية هي إحدى فصائل حركة التحرر العالمية في النضال ضد الاستعمار الكولونيالي، وأخذ الكثير من الكتاب التقدميين بالربط بين الشعور القومي والشعور الأُممي، والنظر إلى العالم على أنه موطن لبني الإنسان على اختلاف القوميات والمذاهب والأديان، وعلى الإنسان أن يتعاون مع أخيه الإنسان بما فيه خيرٌ للبشريةِ جمعاء، ومن هؤلاء الشعراء الذين انطلقوا هذه الانطلاقة الأُممية كان الشاعر العربي السوري والكاتب المعروف شوقي بغدادي.

الذي كتب في إحدى قصائده يصور حبهُ للوطن، ويرفض الاعتراف بالحدود المصطنعة القائمة بين البلدان العربية والنزاعات بين بلدان العالم:

وما قلبي لتحبسه حدود إذا قلبي المحب هو الدليل

فكل الارض لي وطن وكل من الاهلين فيها لي خليل

ولقد استنكر الشاعر بغدادي شتى الحروب، فهاجم الفاشية السوداء، وأدان الحرب التي شنتها ضد الشعوب الآمنة منكلة بها أبشع تنكيل، فكتب يقول من مقياس أممي:

فعلى ضفاف السين يحيا لي صغار آبرياء

وبقلب ناطحة السحاب يعيش آيضا آصدقاء

وهناك في الصين البعيدة لي رفاق آوفياء

عمر الفاخوري:

ولم تكن هذه الأفكار الإنسانية التي تتضمنها أشعار شوقي بغدادي وغيره من الكتاب، لولا انتشار الفكر الاشتراكي الإنساني، الذي كان يشكل القاعدة الأساسية في انطلاقة الكتاب الواقعيين الثوريين، ومن هؤلاء الكتاب كان الكاتب الاجتماعي المعروف عمر الفاخوري، الذي عاش في لبنان وسورية وأنتج أدباً اجتماعياً وتراثاً إنسانياً راقياً، وقال المؤرخ الأدبي جميل صليبا عن الكاتب عمر فاخوري، الذي سخر قسطاً هاماً من حياته من أجل النضال الوطني، وتكوين عصبة النضال ضد الفاشية المجرمة، كما عمل من أجل تطوير الأدب الإنساني الواقعي خطوات إلى الأمام، ولعمر فاخوري كتب تنمُّ عن نزعته الإنسانية منها كتاب «لا هوادة» الذي يضم مقالات تدين النازيَّة والفاشية، وكتاب «أديب في السوق»، الذي يصور فيه حياة أديب نزل من برجه العاجي إلى الساحة العامة للإقامة بين الجماهير، وكتاب «الاتحاد السوفييتي» حجر الزاوية الذي يشتمل على مقالات عن الاتحاد السوفييتي، ومغزى وجوده

التحرري، وله ترجمات تُعبِّرُ عن توجهه العقلاني كترجمة كتاب «حياة المهاتما غاندي» لرومان رولان.

وكتاب «آراء أناتول فرانس» وقصة «الساذج» لفولتير، وما أعجب عمر فاخوري بفولتير، وأناتول فرانس وبرنارد شو، ورومان رولان إلا أنهم أطلقوا نفوسهم من رق التعصب القومي الضيق، وسخروها خالصة لخدمة الإنسانية جمعاء[96].

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب عمر الفاخوري قد سبك ومزج بين الأدب والنضال الوطني التحرري ضد قوى البغي والعدوان، ولم يكن في مؤلفاته مقلداً أو مكرراً لما نوقش قبله بطرقٍ كلاسيكية، بل كان مجدداً يبث الروح الحية في هذه المواضيع، التي تناولها على أحسن شكلٍ، ولقد كتب الناقد مارون عبود محدداً بعض ميزات الكاتب عمر فاخوري بما يلي:

«يعجبني في الكاتب عمر مزجه النضال بالأدب، ونفخة الروح الفنية في هذه المواضيع التي تلوكها الأقلام في كل ساعة، إنها لتخرج من معرض جمال هذا المزين اللبق بأحسن تواليت.. حُلِي، وغلائل فتانة تستر العورة ولا تُخفي الجمال، ولا تُضفي عليه الفتنة».

لا يفارق عمر الأدب والفن في أحرج ساعات النضال، فهو السياسي الأديب، والمدافع عن قضايا (الحمر) بقلبٍ لو عُمِّرَ بمثل هذا الإيمان لأمسى في الجنة، وهو في حلل خضر، لا يقف عند الحوض، ولا يروعه عبور السِراط.

قالوا: ما دخلت السياسة شيئاً إلا أفسدته، أما أنا فأقول: حاشا أدب عُمر[97].

ولقد انطلق عمر الفاخوري في نضاله هذا من كونه آمن أشدَّ الإيمان أن الحق دائماً إلى جانب الشُّعوب المناضلة من أجل حريتها وكرامتها واستقلالها السياسي والاقتصادي وسيادتها على خيرات بلادها، وما نتاجات عمر إلا تجسيداً لما كان يؤمن به دون أية مناورة أو إخفاء، ومن هذا القبيل، فقد آمن

---

[96] جميل صليبا، محاضرات، دمشق 1958، ص122.

[97] مارون عبود «جدد وقدماء» دراسات، ونقد، ومناقشات بيروت 1954، ص187.

عمر الفاخوري بأن الاتحاد السوفييتي صديقٌ وفي ومخلص للشعوب في شتى أنحاء العالم، ومن بينها الشّعب العربي.

ولهذا انطلق عمر يدافع عن الاتحاد السوفييتي، ويناضل إلى جانبه بقلمه وفكرهِ ضد الدعايات المفرطة الموجَّهة ضده، وضد الغزو الفاشي، ويقول مارون عبود في مكانٍ آخر:

«ليهنأ الاتحاد السوفييتي، فله في اللسان الروسي كاتبه العظيم الحي إيليا اهرنبورغ، وله في لسان العرب عمر فاخوري، أديب العرب[98]».

هذا ولقد دار نقاشٌ طويلٌ، يتصل اتصالاً وثيقاً بالمسألة التي نوقشت في أكثر من مكان وتبناها المؤدلجين البرجوازيين، والتي تقول بأن الأدب يجب أن يكون للمتعة، وبعيداً كل البعد عن السياسة والمشاكل الاجتماعية، ومن هذا القبيل، حاول بعض النقاد الرجعيين أن يوجهوا الإساءة تلو الإساءة إلى أدب عمر الفاخوري، وهنا لا أجد إجابةً أكثر وضوحاً من إجابة رضوان الشّهال الذي كتب: «أراني أتساءل، لاحباً بالسؤال والأسئلة، بل عجباً من أولئك الذين أخذوا على عمر فاخوري «اشتغاله بالسياسة»...

أكان من الممكن لعمر الفاخوري، يوم أبى الطاغية النازي إلا أن يزج العالم في نضال مدجج بالحديد، مضرج بالدم، في ملحمة كملاحم الأساطير، أكان بإمكانه أن لا يشعر ولا ينفعل، ولا يتحمس، ولا يرسلها صيحة، تهتف للمعسكر الذي يحمل بيديه إمكانية القضاء على أدهى خطر ابتلى به المجتمع؟[99]

وبكلمة، أن أدب عمر الفاخوري كان رافداً من روافد الأدب الواقعي، الذي تأثر إلى أبعد الحدود بالأدب السوفييتي - أدب مذهب الواقعية الاشتراكية، ويشكِّلُ أدب عمر أحد روافد (الأدب الهادف)، ولقد كان نتاج عمر فاخوري

---

[98] نفس المرجع السابق ص27.

[99] رضوان الشهال «من تراث عمر فاخوري» دار الفارابي، 1954، ص27.

بمثابة الرَّد الحازم والحاسم على أولئك الذين يشككون بقوة وعظمة الأدب الواقعي الملتزم، ويطرحون في بعض الأحيان:

ماذا تريدون من الأديب؟... أتسلبونه حريته في التفكير والتعبير؟... أفأنتم تملون عليه إرادة لا تنبثق من نفسه ولا تأنس بها روحه؟... وهل أبيتم إلا أن يكون أداةً مطواعةً تتحرك بلولب، أو ببغاء يردد ما يُحكى؟...

وأين حظُّهُ من الحرية والانطلاق التي لا بد أن يتمتع بها الأديب لكي يتجلى فيما يكتب صدق الأداء وروعة التصوير؟...

والحق لو أن مفهوم الأدب الهادف كان على هذا النحو، لما اعتبرناه إلا (أدباً هاتفاً) كما قال بعض الظرفاء، وهو بهذا التفسير رجعة بالأدب إلى الوراء[100].

وفي هذا المجال يُجيب الكاتب الشَّهير ميخائيل شولوخوف أحد أعلام المدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب السوفييتي فيقول: «يقول عنا الأعداء أن كتابنا يكتبون بتوجيه الحزب الشيوعي، ولكن الواقع غير هذا، فإن كل واحد من كتابنا إنما يكتب حسب توجيه قلبه، وقلب كل منا مع الشعب السوفييتي ومع الحزب الشيوعي، وإذا كنا ننتقد بعضنا بعضاً، فإنما كان ذلك لعظم حبنا للشعب، قياماً بواجبنا نحو الشعب ولعظم حبنا للحزب، ولكي نؤدي مهمتنا العظمى في تثقيف الجماهير[101]».

وفي هذا المجال توجدُ علاقةٌ متينة بين عمر فاخوري والكاتب البروليتاري، مؤسس الواقعية الاشتراكية مكسيم غوركي، الذي حدد أسس حزبية الأدب الملتزم، وقد كتب كامل عيَّاد عن العلاقة بين هذين الأديبين ما يلي: «إن كل واحد منهما كاتب كبير، فذٌّ، خالدٌ وقف فكره وقلمه ونشاطه على خدمة الشعب وتحرير الإنسان».

يريد عمر فاخوري أن ينزل الأديب إلى السوق حيث المعامل والمصانع والمتاجر،

---

[100] انظر محمود تيمور، الأدب الهادف، القاهرة 1959، ص39.

[101] انظر كتاب حسين مروة «قضايا أدبية» القاهرة 1956، ص98.

obeikandl.com

حيث تتشابك المصالح وتتصادم، ويعمل أبناء الشعب لكسب أرزاقهم ويعودون إلى أكواخهم، لأن مثل هذه الجولة بين الجماهير الكادحة تساعد على معرفة حالة أمته والشعور بآلامها، ولكن الأدباء المثقفين، الذين ينزلون عند إرادة الطبقات المترفة، الحاكمة (الكلام يجري هنا عن الأوضاع قبل عام 1947) ويتزلفون إليها ويدافعون عنها، ويعملون قدر المستطاع على الاندماج فيها، لا يطيقون النظر إلى سواد الشعب الجاهل القاصر، الغبي، بل يحتقرونه ويستخفون بأحلامه ويهزؤون بآلامه ولا يرون فيه إلا آلاتٍ مُسخَّرةً لخدمة الطبقة الغنية الحاكمة التي يعيشون في ظلها ومن فضلاتها، والتي باعوا من أجلها قلوبهم وعقولهم وضمائرهم، منهم من يعتقد بأن الشعب «غول» مخيف يجب كبح جماحه، وأنه لا مفر من إبقائه على فقره وجهله وصبره إقراراً للسكينة، وحفظاً للنظام[102].

ومن الجدير بالذكر أن الكُتَّاب العرب في سورية ولبنان مثلهم مثل العديد من الكتاب العرب في تلك الآونة، فقد كتبوا القصص النثرية والقصائد الشعرية بنفس الوقت، ولقد عاد البعض من الشعراء إلى الشعر العربي الكلاسيكي العمودي، وتوجه البعض الآخر نحو المدرسة الرمزية، التي كانت من أهم المذاهب الأدبية في المجال الشعري في العشرينات والثلاثينات من القرن الحالي، ولقد خصص الكتاب التقدميون الكثير من نتاجاتهم النثرية أو الشعرية، لعكس موضوع النضال الوطني التحرري ضد المستعمرين الفرنسيين، والقضاء على الجهل والتخلف، وعكسوا حياة العمال والفلاحين وجميع فئات الشعب الكادح، وفي هذا المجال، كان عمر فاخوري من أهم الكتاب وأشهرهم في تصوير هذه المواضيع وعكسها في قالب فني رائع.

---

[102] كامل عياد، أديب عربي وأديب سوفييتي، دمشق 1997، ص4.

الصراع الأدبي:

إن الظروف في ظل الاحتلال الفرنسي كانت صعبة وشاقة للغاية حتى أصبحت لا تطاق نهائياً:

عمَّ الجوع والفقر والاضطهاد والاستغلال البشع من قبل قوات الاحتلال والبورجوازية الوطنية في آن واحد، ولهذا كان على كتاب العشرينات والثلاثينات أن يعكسوا هذه المشكلات، كل حسب مفاهيمه، وموقعه الطبقي وإدراكه السياسي، حتى انقسم الكتاب والشعراء والمفكرون إلى جماعتين أساسيتين:

إحداهما طالبت بأن تُمد يد العون والمساعدة والإحسان من قبل الأغنياء للفقراء، دون أن يتم البحث عن الأسباب الموضوعية، التي أدت إلى تدهور أوضاعهم بهذا الشكل، ولم يكن لدى هذه الجماعة الغنى الثقافي للعمل من أجل التخلص من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، ومن أبرز ممثلي هذه الجماعة كان أحمد فارس الشدياق، ونجيب حداد، وأمين الريحاني، وشكيب أرسلان، ومحمد كرد علي، وعمر أبو ريشة، وجورج صيدح، وأنور العطار، وغيرهم، وكانت هذه الجماعة تضمحل باستمرار إذ أن الأفكار التقدمية العلمية قد أخذت تشق طريقها بين صفوفهم.

أما الفئة الثانية فكان معظمها من الكتاب والمفكرين الذين اطلعوا من قريب أو بعيد على الفكر الاشتراكي والفلسفة العالمية وحملوا راية النضال من أجل التحرر الكامل من الاستعمار السياسي والاقتصادي، وانتقدوا بصراحة علنية النُّظم الاقتصادية الجائرة، التي فُرضت من قبل الاستعمار الخارجي والرجعية الداخلية التي كانت «تغازل» الاستعمار وتتعاون معه بشتى الوسائل والطرق لكبح جماح الانتفاضات والثورات الشعبية، ومن هؤلاء الشعراء والكتاب الذين ساهموا بنشر وتعميق المفاهيم الاشتراكية كان جورج حنا، شوقي بغدادي، سليمان العيسى، حنا مينه، حسين مروة، وصفي البني، مواهب كيالي،

obeikandl.com

حسيب كيالي، وغيرهم الكثير من أعلام الفكر العربي المعاصر.

والخلاف الأساسي بين هاتين الجماعتين ينحصر في أن الفئة الأولى آمنت بالإصلاح الاجتماعي على الأسس المثالية، بينما رأت الثانية أن الخلاص من هذا الوضع الجائر يتطلب العمل من أجل الثورة التي من مهامها أن تقضي على جميع أشكال الظلم والاضطهاد والاستغلال، ولقد أخذ الشعراء التقدميون في نهاية الأربعينات والخمسينات على عاتقهم إحياء الشعور القومي التقدمي ونشر الوعي بين العمال والفلاحين للعمل والنضال على جميع الجبهات من أجل بناء الحياة الجديدة بالكدح والعمل الحثيث، وفي هذا المجال كتب شوقي بغدادي:

سنحمل هذه الفؤوس ونلهث في المنجم

وسوف نجر الحديد ونرفض أن نرتمي

كما كتب الشاعر وصفي قرنفلي العديد من القصائد، التي هاجم فيها الإمبريالية العالمية، التي تعتدي على حريات الشعوب، وتنهب خيراتها، ولقد وقف منذ بداية حياته الأدبية إلى جانب الشعب العامل، مطالباً بالاستقلال الوطني والحريات لكافة المواطنين.

ولو ألقينا نظرةً سريعةً على نتاجات الكتاب السوريين في الأربعينات والخمسينات لوجدناها مليئة بمثل هذه المواضيع الوطنية التحررية، ولقد قوم النقاد هذا النتاج الأدبي تقويماً عالياً فكتب جميل صليبا عن النتاج الشعري التقدمي ما يلي: «إن أكثر نتاج الشعراء التقدميين كان من الشعر الاجتماعي الثوري، الذي يدعو إلى حياةٍ باسمةٍ، يسودها العدل والرَّفاه والحب والسلام، ومثل ذلك كثير في شعر أعضاء رابطة الكتاب العرب، وهو شعر جديد تختلف أغراضه كما نرى عن أغراض الشعر الحماسي، والشعر الرومانتيكي، وهو في نظرنا ثمرة من ثمرات التقدم الاقتصادي، ونتيجة من نتائج المبادئ

obeikandl.com

الاشتراكية التي انتشرت في بلاد الشام بعد الحرب العالمية الثانية[103]».

ولقد اتخذ الشعر الثوري أشكالاً جديدة من القافية والأوزان الشعرية الحديثة، ولم يعد الشعر معقداً كما كان عليه في السابق، من حيث الالتزام بالشعر العمودي، والقوافي، والأوزان والبحور وأصبح الشعر الحديث أقرب مثالاً للشعراء الشباب، وأرحب صدراً لعكس شتى المواضيع السياسية والاجتماعية. وصرَّح الشاعر العراقي المعروف عبد الوهاب البياتي عام (1954) بعد أن غاص في عالم الشعر الحديث، وتأثر تأثراً كبيراً بفنونه التي استهوته أكثر بكثير من القوافي الشعرية الكلاسيكية، حيث قال: «منذ عام 1949 بدأ اتجاهي الجديد، وكان انتقالي الجديد، وكان انتقالي من المرحلة السابقة مصحوباً بتجارب عنيفة تعرضت لها، وليس في يدي إلا شعوري بضرورة وضع حداً للمهزلة التي لم تنجُ منها غالبية الشُّعراء العرب، ألا وهي الجري وراء القوافي والاستهانة بالقيم الجماعية، وبألم الشعب، الذي ينتظر من أُدباءِهِ ومفكريه أن يلتفتوا إليه، ولديَّ الآن الكثير من القصائد التي كتبتها منذ العام 1950 إلى يومنا هذا، وهي لم تنشر بعد في كتاب، وإنني متردد الآن في نشرها لأنني أشعر بأنني قد تطورت تطوراً جديداً خلال هذه السنوات الأربع...[104]».

وتجب الإشارة أيضاً إلى أنه خلال هذا الصِّراع بين الاتجاهات الأدبية اليسارية واليمينية - إذا صح التعبير - أو التقدمية والرجعية، وجَّهَ المحافظون الكثير من الاتهامات للأدب التقدمي، إذ حاولوا أن يركزوا اتهاماتهم حول مسألة الضَّعف الفني للنتاجات الأدبية، ويقول (المحافظون) أن الكُتَّاب التقدميون يعيرون اهتمامهم الأساسي للمضمون الفكري، والتعبير عن رأي بعض الأحزاب ضمن مدرسة الواقعية الاشتراكية، بينما كذَّبَ التقدميون هذه الادعاءات، وأثبتت نتاجاتهم في الواقع العملي أنها قد بلغت قمم الأدب العالمي، وأشار الناقد حسين

---

[103] جميل صليبا، محاضرات، دمشق 1958، ص105.

[104] عبد الوهاب البياتي، في كتاب «في الأدب العربي الحديث» بيروت 1954، ص105.

obeikandl.com

مروة إلى هذه الناحية، مُبيناً أهمية أدب الواقعية إذ قال: «أنه لا قيمة لعمل أدبي عندنا، إذا لم يكن بين شكله ومحتواه توازن عام، بحيث لا يبرز المحتوى على حساب الشّكل الفني أي على أشلائه وأنقاضه، ولا يبرز الشكل هذا على حساب المحتوى، وعلى فقدان الدلالة الاجتماعية في العمل الأدبي، فإنَّ كِلا هذين النوعين هو اختلال في ميزان القيمة الفنية، بل هو خروج بالعمل الأدبي عن كونه عملاً أدبياً بإطلاق، ما بين ادعاء المرجفين علينا، بأننا لا نؤمن بالشكل، وإنما نقصر غايتنا واهتمامنا على المحتوى وحده[105]».

وفي هذا المجال لا بُدَّ من الإشارة إلى أن الأدباء العرب من ذوي الاتجاهات التقدمية، ومن بينهم الكتاب والنقاد في سورية ولبنان قد لاقوا الكثير من الصعوبات والعراقيل على طريقهم النضالي ضد القوى الرجعية، وغالباً ما كان الكتاب والنقاد الرجعيون يتهمون الكُتَّاب الواقعيين ويتجرؤون على القول أن نتاجاتهم الأدبية الواقعية التقدمية ما هي إلا انعكاساً للمواضيع الاجتماعية وتجسيداً للأفكار المجرَّدة الخالية من الكساء الفني، ولكن هذه المقولات كانت خالية من الصحة نهائياً، ويكفي لدحض هذه المقولات أن نورد بعض النجاحات الأدبية الهامة التي حققها الأدب الاشتراكي السوفييتي، وأن نذكر ما تحقق من تقدُّمٍ أدبي على أيدي الكُتَّاب العرب التقدميين بما فيه تطوير الأدب العربي عامة.

ولقد أثمرت الصلات بين الكتاب العرب التقدميين وكتاب المعسكر الاشتراكي وأعطت الكثير من النتائج الإيجابية الهامة، ولقد أشار الناقد العربي حسين مروة إلى أهمية الاستفادة من الأدب السوفييتي بما يلي: «لهذا كله نرى لِزاماً علينا، نحن الكتاب العرب الواقعيين، أن نتدارس جَهد المستطاع ما بسطه الكتاب السوفييت على اختلاف قومياتهم في مؤتمرهم الثاني، ومن وجود الواقعية في أدبهم كما تتراءى لهم من خلال تجربتهم الخصبة

---

[105] حسين مروة؛ قضايا أدبية، القاهرة 1956، ص12.

obeikandi.com

الطويلة الأمد، وأن نستزيد من اهتمامنا بهذا الحادث الكبير، (أعني انعقاد مؤتمر الكتاب السوفيتيين الثاني) لكي نتعرف كل ما نستطيع تعرفه على حقيقة هذه الواقعية، على ما يفهمونها هناك بعد طول التجربة والمعاناة».

... ليس القصد هنا أن «نستورد، مفهوم الواقعية الاشتراكية إلى أدبنا العربي، كما هي في الأدب السوفييتي بل القصد أن نسترشد بتجربة القوم، وبأن نرى إليهم كيف وضعوا الواقعية الأدبية موضع التطبيق العملي في مختلف أشكال الأدب وفروعه، وكيف نقلوا أدبهم من حَيِّز الانفعال الذاتي المحض، ومن نطاق الخيال والتأمل المجردين، إلى حقول النشاط الإنساني حيث يعيش الناس البسطاء ويعملون وينتجون ويتطورون، ثم أن نرى إلى هذه الواقعية عندهم كيف استطاعت استيعاب كل ذلك الإنتاج المتنوع الخصب، وكيف لم تضق بأمور شتى من حياة الناس في ميادين نشاطهم العملي والإبداعي وكيف يريدونها الآن ـ مع ذلك ـ أن تتسع أكثر فأكثر، بمختلف شؤون الناس في مختلف ألوان حياتهم وصنوف نشاطهم الإنساني[106]»، ولم يترك الكتاب التقدميون أياً كان من مجالات الحياة إلا وطرقوها بشجاعةٍ وإقدامٍ، حتى إن الكثير منهم قد خاضوا بتحليل المعضلات والمشاكل الاقتصادية، التي يعاني منها الشّعب عامة، وخاصة جماهير العمال والفلاحين، ولقد حاول النقاد البورجوازيون، أن يقللوا من أهمية هذا الأدب ولكنهم باءوا بالفشل، وقد كتب الناقد والكاتب المصري المعروف سلامه موسى ما يلي:

«أما في الاقتصاد فإن أديباً واحداً في مصر لم يرتفع صوته بالدعوة إلى إنصاف العمال الزراعيين والصناعيين، لا في مقال ولا في قصة، غيري، واتهمت واعتقلت بتهمة الشيوعية لهذا السبب، وإغفال الأدباء في مصر لموضوع العمال ينبني على أنهم، إنما كانوا يتجهون نحو طبقة الباشوات والأثرياء والموظفين ويخاطبونها، ويلتفتون إلى اهتماماتها دون طبقة العمال، كان الأدب لا يعنى

---

[106] نفس المرجع السابق، ص87 ـ 88.

بعشرين مليون مصري من أصل 21 مليوناً[107]».

وتجب الإشارة إلى أنه فيما بعد الحرب العالمية الثانية قد ظهر في مجال الأدب السوري واللبناني، كما في العديد من البلدان العربية الأُخرى، عدد لا بأس به من الكتاب والشعراء الشباب، تكاتفوا، وتعاونوا ملتفين حول جملة من القضايا المبدئية الأساسية ذات التوجه الاشتراكي مما ساعدهم في تكوين الرابطة الأدبية عام 1951، والتي ضمت في صفوفها الكثير من الكتاب المعروفين على المستوى العربي والعالمي أمثال: مواهب الكيالي، حنا مينه، سعيد حورانية، وصفي البني، ليان ديراني، حسيب الكيالي، شوقي بغدادي، فاتح المدرس، مُراد السِّباعي وغيرهم، ولقد نشرت هذه الرابطة الأدبية العديد من المجموعات القصصية والشِّعرية لعدَّةِ شعراءٍ وكُتَّابٍ بشكلٍ مشترك، أو لبعض الكتاب بشكلٍ مُنفرد، ومن بين هذه المجموعات كانت «مع الناس»، «أخبار من البلد» للكاتب حسيب الكيالي، «المناديل البيض» للكاتب مواهب الكيالي، «حينا يبصق دماً» لشوقي بغدادي، «في قلب الغوطة» لوصفي البني، «وفي الناس المسرة» لسعيد حورانية، والمجموعة المشتركة بعنوان «درب إلى القمة» التي لاقت اهتماماً كبيراً من جانب الشُّعراء في مُختلف أنحاء الوطن العربي وترجمت بعضها إلى العديد من اللُّغات الأجنبية.

ومن الجدير بالذكر هنا أن أكثر هذه المجموعات كانت تنحوا نحواً تقدمياً وخاصةً أن الأقاصيص والقصائد الشعرية وغيرها من النتاجات التي تضمنتها هذه المجموعات كانت تأخذ مواضيعها من وحي النصر على الفاشية، ومن التطور السريع، الذي شهدهُ العالم عُقب الحرب العالمية الثانية، والانقلاب الجذري، الذي حدث فيه، إذ تكوَّنَ المُعسكر الاشتراكي، الذي يضم كافة الدول الاشتراكية، وتحررت الكثير من البلدان المستعمرة أو شبه المستعمرة، وعمَّ المد الثوري قارات آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وسلكت بعض بلدان

[107] سلامة موسى، الأدب للشعب، القاهرة 1956، ص18 ـ 19.

هذه القارات طريق التطور اللارأسمالي، واتسعت العلاقات بين الدول المتحررة النامية وبلدان المنظومة الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفييتي، وتقهقر النظام الرأسمالي أمام هجوم الفكر التقدمي الاشتراكي الذي عمَّ جميع أنحاء العالم، وظهرت داخل كل بلد على حدة عدة مسائلٍ ومعضلاتٍ جديدةٍ تتطلب الحل، وأغلبها كان يقوم على أساس الصراع الطبقي بين الفئات المستغلة والمستغلَّة إذ أخذت الأولى تستكمل مقوماتها الثورية، وتسترشد بتجارب الدول الاشتراكية والثورات التقدمية في العالم، والانتفاضات الشَّعبية، وكان على الحكومات، التي استلمت السلطة بعد الاستقلال من البورجوازية الوطنية في البلدان العربية أن تجيب على متطلبات الجماهير الاقتصادية والثقافية والسياسية ولهذا نجد أن هذه الحكومات غالباً ما كانت تسقط لأنها عاجزة عن تلبية رغبات الجماهير المتزايدة.

وأمام هذه الظروف الجديدة كان على الأدب العربي أن يُساهم مساهمةً فعالةً في إنعاش الروح الوطنية والتحررية في نفس كل مواطن، وأن يذكي المشاعر الإنسانية التقدمية للتخلص من مُخلفات الماضي، ومن تركة الاستعمار التركي والإنكليزي والفرنسي، وعلى الرجعية الداخلية التي تواطئت مع الاستعمار خلال قرونٍ طويلة، وكانت شريكة الاستعمار في الاستغلال الاقتصادي للشعب العربي، وعاملاً فعالاً في القهر السياسي ضد الحركات الوطنية التحررية، وكابوساً ثقيلاً على كتف الوطن العربي الذي هبَّ للتحرر من كافة أشكال العبودية والتبعية.

ولهذا ولغيره انقسم الأدباء والمفكرون إلى جماعتين أساسيتين تولت كل منهما الدفاع عن مصالحها، الجماعة الأولى هي الأقدم تاريخياً، وتتكون من الكتاب البرجوازيين الذين دافعوا عن مصالح طبقتهم البورجوازية الرجعية، وغالباً ما كانت هذه الجماعة تعمل تحت شتى الأقنعة منها: (الحفاظ على التراث القديم)، (الاستقلالية)، وما إلى ذلك من ادعاءات، ينفذون من خلالها

obeikandi.com

إلى تحقق مصالحهم ومآربهم في العمل ضد الاتجاهات التقدمية الداخلية، أو عن طريق التأثر بالأدب العالمي التقدمي، وكثيراً ما عمل هؤلاء (المحافظون) ضد ترجمة الكتب التقدمية إلى اللغة العربية وتوزيعها في الأقطار العربية بحجة (النضال ضد الغزو الثقافي في أية جهة كانت)، وبهذا كانوا يقعون في أخطاء كبيرة للغاية، إذ لا يفرقون بين الأدب الغربي البورجوازي الرخيص وبين الأدب الإنساني الخالد، ولقد عمل «المحافظون» ما بوسعهم من أجل القضاء على بوادر الأدب الثوري النضالي في الأدب العربي، وضيقوا شرَّ تضييقٍ على الأدباء واتهموهم بشتى الاتهامات التي لا تليق بهم، وحطوا من أهميتهم الأدبية، ولكن هذه الأمور كانت تضمحلُّ باستمرار وتتقلص تبعاً للتطور الزمني، وطرداً مع الرقي العلمي والحضاري، ومع زيادة العلاقات الثقافية مع الآداب العالمية الأخرى، حتى اندحرت هذه الجماعة أمام المد التقدمي التحرري عقب العالمية الثانية وفي أوائل الخمسينات من قرننا.

أما الجماعة الثانية، فكانت أكثر عدداً من الأولى بكثير، وهي الجماعة التي ربطت مصيرها بمصير الجماهير والنضال ضد الاستعمار بكافة أشكاله، وضد الاستغلال الاقتصادي، ورفض الفوضى والانحلال الاجتماعي، وطالبت هذه الجماعات بالثورة الثقافية والعلمية في كافة قِطاعات العلم واكتساب المعرفة، وناضلت من أجل الثورات السياسية على النُّظم الاستعمارية وشبه الاستعمارية وخلق النظم التقدمية القائمة على العدل والمساواة والحرية لكافة المواطنين، ولقد أشار الكاتب مواهب الكيالي رئيس رابطة الكتاب السوريين إلى ناحية هامة تخصُّ تكوين الأدب العربي المعاصر على أُسسٍ سليمة، مشيراً إلى بعض النواقص في الآداب الأجنبية الغربية، إذ قال: «من أجل الوصول إلى تحقيق أهدافنا يوجد عدة طرق منها: بعث التراث العربي القديم في مجال الأدب ودراسته على ضوء المعطيات الجديدة، والنضال العنيف ضد ما يسمى بـ «الأدب البورجوازي الغربي الذي يصدر لنا بمختلف الطرق الإمبريالية مع الكثير من

البضائع على شكلٍ مخزٍ، وبوجنتين حمراوين وقحتين، قاصدين (أي الأوساط الإمبريالية) من وراء ذلك عرقلة نضالنا، وتمزيق أرواحنا وأنفسنا، وإملاء أخلاقهم ومثلهم المنحطة واللامسؤولة علينا[108]»».

هذا وكان على الأديب العربي المعاصر، أن يلعب دوراً هاماً وحاسماً وأساسياً في تطور الأدب العربي عامة، بغضِّ النظر عن عمره وإبداعه القصيرين، وعلى الرَّغمِ من الطريق الصعبة التي سلكها عبر الظروف الصعبة الشاقة في ظل الحكم العثماني وتحت نير الاستعمار الفرنسي والبريطاني، ولقد تطور الأدب العربي في سورية ولبنان بعد الحرب العالمية الثانية، ليقوم بدورٍ هام في اكتشاف المواهب وتطويرها والمساهمة في دفع الأدب العربي عامةً إلى الأمام، وقد لعبت رابطة الكتاب السوريين دوراً هاماً في هذا المجال.

وبغضِّ النظر عن الظروف القاهرة - حدة الوضع السياسي، والتغيرات المتلاحقة للحكومات والأنظمة عقب الحرب العالمية الثانية والحصول على الاستقلال، غياب حرية الكلمة والديمقراطية، فقد تمكن الكتاب أعضاء الرابطة من تحقيق النجاحات، وخاصة في مجال تصوير الواقع السوري بكل أبعاده في نتاجات أدبية هامة.

كُتاب الرابطة وفن الأقصوصة:

لقد تأثر الأدب العربي المعاصر في سورية ولبنان وغيرهما من الأقطار العربية تأثيراً جدياً بالأدب الأوربي من اختلاف مذاهبه وأنواعه، ولقد أكَّدَ على هذه الناحية العديد من نقاد الأدب في كِلا البلدين، ولا يعني هذا التأثر أن الأدب العربي كان يقلد أو يحاكي الأسلوب أو المواضيع لبعض الكتاب الأوربيين - ولكنَّ التطور والازدهار الحضاري في أوروبا انعكس على الأدب أيضاً، الذي

---

[108] مواهب كيالي عن «الجريدة الأدبية» السوفييتية، 1955/1/4 (باللغة الروسية).

obeikandl.com

أثَّرَ بدوره على نتاجات العديد من الكُتاب العرب وخاصة في مجال نتاجاتهم الأولى، وفي هذا المجال كتب أحد النقاد المصريين: «إن الرياح القادمة من الغرب الأوربي قد حملت معها إلى الأراضي العربية بذور القصة القصيرة الطريفة، وبدا التعرف على هذا النوع الأدبي من خلال الترجمة[109]»، أما بالنسبة للجماعة المحافظة في الأدب فقد رفضت هذه المقولة، وحاولت التأكيد على أن الأقصوصة تعود من حيث أصولها إلى القصص العربية القديمة، وتستمد قدرتها وقوتها الفنية من قصص (ألف ليلة وليلة)، ولقد أشار أحد ممثلي هذه الجماعة إلى هذا قائلاً: «إن الرواية والقصة القصيرة هما عربيتان من حيثُ الأصل، ولهما من الجذور العميقة في الأدب العربي الكلاسيكي ما يكفي لتطورهما في الوقت الحاضر[110]».

وطالما أن الأقصوصة هي الفن الأدبي، الذي استهوى عقول الكتاب السوريين، فلا عجب إذن، إذا توقفنا عند النتاج القصصي أكثر من غيره، وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه مهما عَظُمَ الخلاف بين هاتين الجماعتين (المجددة) و(المحافظة) في الأدب، فإن (الوسط الذهبي) في هذا المجال وحده، أقرب إلى الواقع العملي لأن في كلا الاتجاهين شيئاً من التطرف.

فعلى الرَّغم من التأثير الكبير والواسع من جانب الأدب الأوروبي على نتاجات الكتاب السوريين وغيرهم من الكتاب العرب في العشرينات والثلاثينات، وحتى على نتاج المعاصرين منهم، فإنه من غير الصحيح أن نجزم القول بأن هذا النوع الأدبي (أي الأقصوصة) قد نقل بحذافيره، وجميع خصائصه إلى الأدب العربي المعاصر، وإذا ألقينا نظرةً سريعةً على تاريخ هذا النوع الأدبي في الأدب العربي عامة فإننا نجد بأنه قد مرَّ في تاريخٍ شائكٍ متعدد الجوانب، ومن خلال تحليل بعض الأقاصيص تحليلاً أدبياً، يلمس الباحث بأنَّ الكُتاب العرب قد استفادوا

---

[109] مجلة «الآداب الأجنبية» السوفييتية /1960/ العدد 9 ص281.

[110] فاروق خورشيد، مجلة «الآداب الأجنبية» السوفييتية، موسكو 1960، العدد 9، ص281.

بدرجةٍ لا بأس بها من المقامات والحكايات والأحاديث العربية الفولكلورية كما استفادوا من الأسلوب السردي، ومن المزايا القومية السيكولوجية المتجسدة في شخصيات الأبطال وعاداتهم وتقاليدهم، وطريقة تفكيرهم، ونمط معيشتهم، بالإضافة إلى الميزات اللغوية وتأثير اللهجات عليها، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى استفاد الكتاب من الخصائص الفنية والتقنية لهذا النوع الأدبي في الأدب العالمي على اختلاف قومياتهِ.

ولقد أشار الكاتب القصصي محمود تيمور إلى التأثر بالأدب الأجنبي إذ قال: «ليت شعري: ما سر هذه الخطوة التي لقيها القصص الغربي في بيئتنا الشرقية، فسرعان ما تأثرنا به، وسرعان ما حاكيناه واحتذيناه، وسرعان ما ازدهرت بنا فيه رياحين زكية، شرع الغرب يستثني عبيرها، ويثبِّتُ بها لأدبنا العربي الحديث مكاناً كريماً في عالم الأدب الحي[111]».

المؤثرات الأجنبية:

عند الكلام عن المؤثرات المختلفة على تكون الأقصوصة والقصة القصيرة في سورية ولبنان، لا بدَّ من أن نشير إلى نشاط الرابطة الأدبية التي شكلها الأدباء السوريين واللبنانيون في المهجر، (في الولايات المتحدة الأمريكية) بسبب إقامتهم شبه الجبرية هرباً من ضغط الاستعمار العثماني أولاً، والفرنسي أو الإنكليزي ثانياً، ولقد قامت هذه الرابطة الأدبية الاجتماعية بدورٍ هامٍ جداً في استيعاب الأدب الأوروبي، وعملت على تدعيم وتطوير الأدب القومي رغم المسافة البعيدة التي تفصل بينهم وبين أوطانهم، ومن ضمن النشاطات، التي قاموا بها العمل على تطوير الأقصوصة والقصة القصيرة في الأدب العربي المعاصر، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن بعض أعضاء هذه الرابطة، أمثال ميخائيل نعيمة وعبد المسيح

---

[111] محمود تيمور في كتاب «في الأدب العربي الحديث» بيروت 1954، ص20.

حداد، قد درسوا وتتلمذوا في بداية القرن العشرين على أيدي الأدباء الروس، وكتبوا الكثير من نتاجاتهم القصصية تحت تأثير التراث الأدبي الروسي، ولقد لعب الاحتكاك المباشر والاتصال الدائم بين سورية ولبنان من جهة، وفرنسا وأوروبا عامة من جهةٍ أخرى، دوراً إيجابياً وهاماً في تعريف القُراء والكتاب العرب في العشرينات والثلاثينات على التيارات الأدبية التي انتشرت بشكلٍ واسعٍ في الكثير من البلدان الأوربية، ومن بين هذه المدارس كانت الرومانسية والرَّمزية والمستقبلية والوجدانية وغيرها.

ومن أهم المدارس الأدبية التي أثرت تأثيراً فعالاً على عقول الكتاب العرب المعاصرين، كانت المدرسة الواقعية بشقيها النقدي والاشتراكي، ولوحظَّ هذا التأثير في بعض نتاجات الكاتب السوري المعروف فؤاد الشايب، وليس من الممكن القول عن نتاجات الشايب أنها واقعية بكل معنى الكلمة، لأنه كان متأثراً إلى أبعد الحدود بالمدارس الليبرالية، التي تعتمد في كثير من الأحيان على الذات الفردية، وعلى الحدث السيكولوجي بالنسبة للفرد، ولقد عبر فؤاد الشايب عن نفسه بقوله: «أنا لست من أنصار المدرسة الملتزمة في الأدب، والكاتب الحقيقي هو الذي يقوم بمهمته حراً، فالغيوم ترسل البرق، الذي لم يوصى عليه في مصانع عسكرية حربية، هذا هو الأدب الحقيقي، الذي يقوم بمهمته في تاريخ الإنسانية، وأن «الالتزام» لا يعتبر هدفها الأخير[112]».

ومن خلال نتاجاته «الشرق»، «تاريخ جرح»، وغيرهما يلاحظ القارئ بعض الضعف في التجربة الفنية، وغالباً ما كان المؤلف يستخدم بعض جوانب وطرق المدارس الطبيعية، والرومانسية، والرمزية، خالطاً فيما بينها، وعلى الرَّغمِ من ذلك، فإن هذه النتاجات تعتبرُ خطوةً جديةً إلى الأمام في مِضمار تطور القصة والرواية اللتان سادتا في الأدب العربي، خلال فترةٍ زمنيةٍ طويلةٍ نسبياً، وأشار الكاتب السوري المعروف ليان ديراني إلى أهمية الأدب الاشتراكي إذ قال: «إن

[112] مصطفى شاكر في كتاب، القصة في سورية، حتى الحرب العالمية الثانية، ص332.

obeikandi.com

الأدب الشعبي مرتبط إلى أبعد الحدود مع الجماهير، ويعكس نقاوة ويحلل تحليلاً علمياً ظواهر المجتمع دون تحيز أو خوف، ولم يخف حقائق (السيكولوجيا) للفرد، ويبين أبعاد (الفردية) هذا الأدب هو القادر دون غيره، على القيام بالدور القيادي الهام في بعث تراثنا القومي... ومن الضروري، أن يربي الكاتب في أبطاله الروح الثورية لمتابعة النضال الصارم ضد قوى الظلم والاضطهاد، ومن أجل أن يكون هؤلاء الأبطال في طليعة المناضلين من أجل تحرير الإنسانية من الاضطهاد الفاشي، ومن الأحكام الديكتاتورية الغاشمة، ومن أتباع الفاشية ودعاتها، ومن كل من يهادن الفاشية[113]».

ولقد كتب ليان ديراني هذه المقولة وغيرها متأثراً بالمدرسة الواقعية الاشتراكية وبالأدب السوفييتي عامة، وكتب العديد من المقالات الاجتماعية والسياسية التي تنادي بالتضامن مع الاتحاد السوفييتي ضد قوى الفاشية السوداء.

ومن الجدير بالذكر أن ليان ديراني كان أول من ترجم رواية «الأم» إلى اللغة العربية، وعكس ديراني في نتاجاته القصصية حالة الفقراء والكادحين والشعب العامل عامة، وحدد أهمية القصة القصيرة على أنها حقيقة حيَّة مأخوذة من الحياة، بل من حياة أولئك، الذين يكدحون باستمرار، من الحياة، التي يجب أن تصبح سهلةً بالنسبة لهم، وقال ديراني: «إنني أحب أدب الواقعية الاشتراكية وأؤمن بالاشتراكية الحقَّة وبالفن الذي يخدم الشعب والمجتمع والحياة[114]».

وبغض النظر عن النتاجات الأدبية، التي سجلت بأقلام الكتاب السوريين واللبنانيين في فترة الحرب العالمية الثانية، من الممكن القول بأن الأدب في كلا البلدين لم يتطور كما كان يجب أن يتطور بسرعة، وكما حدث بشكلٍ خاص بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى أية حال فإن هذه الأقاصيص تبقى

---

[113] ليان ديراني، مجلة الطريق، 1943، العدد 8، ص11.

[114] ليان ديراني «الصباح الدمشقي» 1941، العدد 7.

obeikandi.com

علامة بارزة في تاريخ التطور الأدبي، حيث أن هذه النتاجات قد تضمنت الكثير من المواضيع التقدمية الواقعية، وتعكس حياة العمال والفلاحين والنشاط الثوري للمثقفين الثوريين.

ومن النتاجات الهامة التي صدرت خلال الحرب العالمية الثانية كان كتاب عمر الفاخوري «الاتحاد السوفييتي حجر الزاوية» الذي سجَّلَ صفحة جديدة في تاريخ الأدب العربي.

ومن الممكن القول أنَّهُ حدد معالم مرحلة قائمة ومقبلة في تاريخ العلاقة والصداقة العربية ـ الروسية، ورأى عمر فاخوري الكاتب الاجتماعي المعروف أن مسألة الدفاع عن الاتحاد السوفييتي الذي حمل راية النضال ضد الفاشية، بمثابة الواجب الوطني والإنساني عامة، ورأى أن هذا الدفاع عن قلعة الاشتراكية الأولى هو دفاع عن البشرية التقدمية وجميع الكادحين والشعوب المغلوبة على أمرها أمام خطر الفاشية السوداء.

وثمَّتَ حدث هام في حياة القطرين السوري واللبناني، إلا وهو الحصول على الاستقلال ودحر الاستعمار الفرنسي، الذي اضطهد الشعب العربي في البلدين واستغل ثروتهما أبشع استغلال.

ولقد تمَّ الحصول على الاستقلال بمساعدة الاتحاد السوفييتي، وهذا الحدث بالذات وطَّدَ العلاقات القائمة بين الدول العربية والاتحاد السوفييتي، بما في ذلك تطوير وتوطيد العلاقات الثقافية، وكل ما يتعلق بها من جوانب ونواحي.

الاتجاهات الأدبية في الخمسينات:

فيما بعد الاستقلال، وبشكلٍ أساسي في السَّنوات الثمانية الأولى من الخمسينات، تعددت الاتجاهات الأدبية بشكلٍ لم يسبق لهُ مثيل من قبل، وإذا ألقينا نظرةً سريعةً على شتى الاتجاهات والتيارات الأدبية وتنظيماتها في العشرينات والثلاثينات، فإننا نلاحظ بأن تلك الاتجاهات والتيارات لم تأخذ

طابعاً منظماً ومبرمجاً، حتى إذا أخذنا (الرابطة الأدبية) التي شكلت عام 1921، و(المجمع الأدبي) سنة 1934 وغيرهما، لوجدنا أنه، وعلى الرَّغم من أن هذين المركزين يشكلان نقطة تحول هامة في النهضة الأدبية، لكن النتائج العملية والفعلية كانت هزيلة، لأن هذه المدة لم تدم طويلاً، وانحلت التنظيمات الأدبية بسبب عدم الانسجام، الذي حلَّ بين أعضائها، ومن بين الأسباب الأساسية لحل هذه التنظيمات الأدبية، كان الصراع بين المشاركين فيها حول (القديم والحديث).

أما بالنسبة للروابط والتنظيمات الأدبية في الخمسينات، فقد أخذت طابعاً مُنظماً، ومن أهم هذه التنظيمات كانت (رابطة الكتاب السوريين) التي شكلت في تشرين الثاني عام 1951، وتمَّ إقرار بيان خاص بها ووثيقة عمل منهجية، وتضم الرابطة جميع الكتاب السوريين التقدميين، وقد أخذت على عاتقها النهوض بالفكر التقدمي والأدب الإنساني.

ومن الجدير بالذكر أن أكثرية هؤلاء الكتاب كانت تنتمي إلى أحزاب ومنظمات سياسية تقدمية وذاتُ بُعدٍ أيديولوجي إنساني أُممي، وكان العامل الفكري بمثابة السَّبب الأساسي والهام في توحيد أعضاء الرابطة ونجاح أعمالها ونشاطها، وقد لمس القارئ العربي في نتاج هؤلاء الكتاب النزعة التحررية التقدمية الإنسانية الهادفة إلى إنشاء الأدب الواقعي، ليس في الأدب العربي السوري فحسب، بل في الأدب العربي عامة، وأصبح من الواضح في أدب هؤلاء الكتاب، إن معظمهم قد تجاوز أدب الواقعية النقدية، ووضع بعض الأسس الموضوعية لتكوين بعض عناصر المدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي.

ولقد ازدهرت القصة القصيرة على أيدي الكتاب - أعضاء الرابطة - وهذا ما جعل النقاد المعاصرين يعتقدون أن فترة الخمسينات من أهم المراحل في تاريخ الأدب العربي المعاصر، ولو سنحت الظروف لهذه الغرسات التقدمية الشابة التي زرعت في المرحلة الديمقراطية في بداية الخمسينات أن تكبر وتثمر في ظروف

اجتماعية وسياسية ملائمة، لكانت قد أعطت فيما بعد أدباً ذا مكانة عالية، ليس بالنسبة للأدب العربي فحسب، بل بالنسبة للأدب العالمي ككل، وعلى الرَّغم من تلك النواقص والهفوات التي يصادفها القارئ في نتاجات تلك الفترة فإنها سوف تبقى علامةً بارزةً في أدبنا العربي السوري والعربي عامة، وقد سجل هؤلاء الكتاب التقدميون بنتاجاتهم صفحةً ناصعةً في تاريخ أدبنا قبل أن يشردوا في نهاية الخمسينات وتحت الضغط السياسي إلى شتى بلدان العالم.

ومما يلفت الانتباه أن أكثرية هؤلاء الكتاب ـ أعضاء الرابطة ـ كانوا من كتاب القصة القصيرة، بمن فيهم حنا مينه الذي أصبح يعرف فيما بعد كروائي أكثر منه ككاتب قصة قصيرة، لأنه اجتاز مرحلة القصة القصيرة وثبت في عالم الفن الروائي.

ولقد امتاز هؤلاء الكتاب عن غيرهم من كتاب مرحلة النهضة الأدبية المعاصرة بالتزامهم السياسي، إذ أن الأكثرية الساحقة منهم، كانت من أنصار الفكر الماركسي، الذي انتشر في الأربعينات والخمسينات بشكلٍ مُلاحظٍ في كافة البلدان العربية، فرفع هؤلاء الكتاب ـ أعضاء رابطة الكتاب السوريين ـ راية الصداقة مع الاتحاد السوفييتي، والتعاون في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، كما أصرَّ هؤلاء الكتاب على الاستفادة قدر الإمكان من التجربة الفنية للأدب الروسي السوفييتي والأدب التقدمي العالمي ودعم الأدب الواقعي الاشتراكي، وأكَّدَ هؤلاء الكتاب في نتاجاتهم على العدالة الاجتماعية والديمقراطية والحرية السياسية، وتحرير المرأة من الظلم والاضطهاد والمساواة بينها وبين الرجل، وطالب الكتاب ـ أعضاء الرابطة ـ بإجراء التحولات والإجراءات التقدمية الاشتراكية في داخل القطر كما أكدوا على تصعيد النضال ضد قوى الاستعمار والرجعية، وعلى التضامن الأُممي بين حركة التحرر الوطني العربية وحركات التحرر في العالم، وتوطيد أواصر الصداقة بين الشعوب، وتوثيق عُرى السِّلم العالمي.

obeikandi.com

أما في مجال الأدب، فلقد وقف ممثلو الرابطة ضِدَّ كافة الأشكال التحريفية في الأدب وإبعاده عن مهمتهِ الأساسية، ورفضوا بعنادٍ أية محاولة للتقليل من الأدب الواقعي القائم على خدمة الشَّعب العامل بكافة فصائله، وفي هذا المجال صعَّدَ الكتاب النضال ضِدَّ أفكار أنصار الشكلية الذين رفعوا شعار (الفن للفن)، ووضعوا بدلاً عنه الشِّعار الواقعي: (الفن في خدمة الشّعب).

وتتسم مرحلة بداية الخمسينات بالنشاط الأدبي الكثيف والواسع، ففي هذه السنوات صدر العديد من المجلات والصحف وأصبحت مهمة الكتاب ذات مسؤولية هامة، إذ أخذت وبالتدريج تحوز على احترامٍ كبيرٍ من قبل الشَّعب عامة، ولم يقتصر الاهتمام بالأدب على الكُتَّاب فقط، بل تجاوزتهم إلى عددٍ كبيرٍ من الصحفيين والأطباء والمهندسين والعمال والفلاحين.

كما اتسمت هذه الفترة باحتدام الصراع والتناقضات بين القديم والحديث ليس في مجال الحياة الاجتماعية فحسب، بل في الأدب أيضاً وفي تلك الفترة بالذات اشتد الخلاف بين أدب الواقعية وتيار «الحداثة» (موديرنيزم).

ومن أهم الأنواع الأدبية التي سادت في هذه الفترة كانت القصة القصيرة والأقصوصة، إذ انتشر هذان النوعان انتشاراً واسعاً على حساب الشِّعر، الذي كان خلال الفترة الماضية، وعلى امتداد القرون الكثيرة يحوز على اهتمامٍ كبيرٍ ليس من الشعراء فحسب، بل من قبل الأوساط الواسعة من جماهير القُرَّاء، وفي هذا المجال لعبت مجلة «النقاد» الأسبوعية التي أصبحت لسان حال «رابطة الكتاب التقدميين» دوراً هاماً في نشر القصص والأقاصيص، وفي النشاط الإعلامي، ونشر الفكر التقدمي.

وكما هو ملاحظ، فإن الفن القصصي أو النثري عامة قد تطور خلافاً لما تطور عليه الأدب في أوروبا الغربية والشرقية على حدٍّ سواء، ففي الوقت الذي سارت فيه الأقصوصة في الآداب الأوربية إلى جانب الأدب الروائي، كانت تسير الأقصوصة والقصة القصيرة في الأدب العربي في مقدمة الفن النثري، وغالباً ما

obeikandi.com

كان الكُتَّاب يمهدون لنتاجهم الروائي بعدَّةِ قِصص قصيرة، ويرى بعض النقاد في مجال الأدب أن اجتياز امتحان القصة القصيرة ضروري لكل كاتب، ويرى البعض الآخر، إنه ليس من الضروري للكاتب الروائي أن يجرب نفسه في مجال الأقصوصة والقصة القصيرة.

وبالإضافة إلى مجلة «النقاد»، ظهر العديد من مُختلف الصحف المحلية الناطقة بلسان الأحزاب السياسية، التي نشطت في بداية الخمسينات بشكلٍ مُلاحظ ومنها: جريدة «البعث» الناطقة باسم حزب البعث العربي الاشتراكي، وجريدة «النور» الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوري، وصحيفة «التحرير» الناطقة باسم حزب التحرير، وغيرها من الصُّحف والمجلات التي قامت بدور لا يستهان به في نشر القصص القصيرة والأقاصيص التي كانت تنمُّ بشكلٍ أو بآخر، عن ازدياد الوعي الاجتماعي بين الجماهير، ولقد أدى التنافس بين القديم والحديث إلى انتصار الأخير الذي تمَّ دعمه من قبل جماهير الشَّعب التواقة إلى الحرية والتقدُّم والاشتراكية، وبهذا تمَّ انتصار الاتجاه الواقعي، الذي عكس التطور الاجتماعي في نهوضه التحرري الثوري، وعلى الرَّغمِ من كثرة الاتجاهات والتيارات الأدبية في الأربعينات والخمسينات، فإن الاتجاه الواقعي هو الذي أثبت جدارته في نهاية المطاف، وكان لكتاب الأقصوصة والقصة فضل كبير في تدعيم أسس الاتجاه الواقعي، وقد حدث هذا لأن الرواية والمسرحية لم تنتشر في تلك الآونة بشكلٍ واسعٍ، ومن الاتجاهات الأدبية، التي سادت في تلك الفترة:

الاتجاه الواقعي اليساري الممثل بالكتاب الذين انخرطوا في صفوف «رابطة الكتاب السوريين» والاتجاه القومي وقد تمثل «بجمعية الأدباء العرب»، والاتجاه الشكلي، الذي يتناقض كلياً مع المعتقدات السياسية، ويؤمن أنصار هذا الاتجاه باستقلالية الفن عن الحياة الاجتماعية والسياسية، وجاء في بيان أنصار المدرسة الشكلية ما يلي: «... وعلى هذا لا يكون عندنا أدب موجَّهٌ، تضيق رحابه بالتوجيه القسري، ولن يكون لدينا (توجيه محدود) يجمع بيننا، وإنَّما

obeikandi.com

غايتنا الأدب الخالص المتسم بالروح الإنسانية القومية دون أن نتخبَّط بسياسة أو حزبية ضيقة، فكل من دخل بابنا يترك وراءه (اللون) خارج الباب[115]، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه في الأدب السوري، فهو الكاتب فاضل السباعي».

هذا ولقد تأثر بعض الكتاب والنقاد العرب بالاتجاه المثالي الذي روج له جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار وغيرهما، وساهمت أسرة تحرير مجلة «الأدب» بدورٍ كبيرٍ في مجال نشر مؤلفات سارتر بين القراء العرب، واستمر هذا النشاط الأدبي بالاتساع والتزايد في التأثير حتى العام 1967، إذ وقع خلاف مع زعيم هذا الاتجاه (جان بول سارتر) الذي دعم العدوان الإسرائيلي على البلدان العربية عام 1967، وسوف نتعرض لهذه المسألة فيما بعد عند الكلام عن الأدب التحرري في نهاية الستينات وبداية السبعينات.

أما بالنسبة للاتجاه الأساسي والهام في تلك الآونة، والذي تمكَّنَ من الصمود أمام كافة الاتجاهات الأخرى، التي أشرنا إليها آنفاً، فقد كان الاتجاه الواقعي الذي أيده عدد كبير من الكتاب السوريين في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، وأغلبهم كان من أنصار الفكر الاشتراكي، وقد تأثر بعضهم تأثراً كبيراً بالأدب السوفييتي - أدب الواقعية الاشتراكية... كما أشار الدكتور حسام الخطيب إلى هذه الناحية عندما قال: «وبالنسبة لسورية، بل ربما لمعظم الأقطار العربية، فقد كانت قصص مكسيم غوركي، وإيليا اهرنبورغ وبوريس بوليفوي، وفيرا بانوفا، والكسي تولستوي، وأشعار ماياكوفسكي، وغيرهما من الآثار الأدبية الشيوعية، وهي التي مهدت السبيل أمام الأفكار اليسارية التي بدأت تدخل المشرق العربي بقوةٍ ابتداءً من الخمسينات، وكان عدد كبير من كتاب القصة السورية بالذات وأعضاء رابطة الكتاب السوريين هم شواهد على فعالية هذه التجربة، وكانوا بالتالي هم الأكثر حماسةً للاستفادة من الإنتاج الأدبي عامة، ومن القصة القصيرة

---

[115] من بيان تجمع «الأصدقاء» في مجلة الآداب، عدد نيسان 1958.

بخاصة، للتبشير بأفكار التغيير الاجتماعي، وكشف القناع عن الظلم والاستغلال[116]».

رابطة الكُتَّاب السوريين ودورها في الصراع الأدبي

إذا ألقينا نظرةً تحليليةً على الواقع الاجتماعي للكتاب الذين شكلوا رابطة الكتاب السوريين، فإننا نلاحظ بأن أغلب هؤلاء كانوا من وسطٍ اجتماعي قريب نسبياً من البرجوازية الصغيرة، والبعض من طبقة فقيرة جداً، ولكن على الرَّغم من الفروق الطبقية فيما بينهم نجد أن هناك سمةً نضاليةً توحِّدُ صفوفهم، ألا وهي نزعة النضال من أجل التحرر الكامل من بقايا الاستعمار، والعمل على تطوير المجتمع، وإنشاء ثقافةٍ وطنيةٍ تقدمية، ويتضح هذا الاتجاه من خلال الأهداف التي حددوها في بيانهم الأول، إذ جاء فيه ما يلي: «إننا كتاب تقدميون، بكل معنى الكلمة، لأن هدفنا هو السَّير إلى الأمام من أجل تحقيق أهدافنا، إننا نثق بمبادئنا، ونثق بأنفسنا لتحقيق هذه الأهداف، وسوف لا نحسب أنفسنا كُتاباً، إذا لم نعش حياة شعبنا، إن هدفنا، هو العمل من أجل الشَّعب، لأننا من أخلص ممثليه[117]».

مواهب الكيالي:

من أكثر الكتاب السوريين شُهرةً كان الكاتب الاجتماعي المعروف مواهب الكيالي الذي عاش حياةً نضاليةً فريدةً من نوعها، وعمل كل ما في وسعه من أجل تطوير الأدب العربي إلى الأمام قدر المستطاع، وكانت أول مجموعة قصصية نشرها الكاتب هي «المناديل البيض»، والتي امتازت بالحس الوطني

[116] حسام الخطيب، مجلة «المعرفة» 1976 العدد 1972، ص41. 42.

[117] من مجموعة «درب إلى القمة» دمشق 1952، ص6. 7.

والإنساني، ولقد قام الكاتب مواهب الكيالي خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها بدورٍ هامٍ في فضح الفاشية والإمبريالية، كما عمل العديد من السنوات في تحرير جريدة «النور» الصادرة آنذاك في دمشق، واضطر مواهب الكيالي عام 1958 إلى الهجرة الجبرية تحت الضغط السياسي، فاختار الكاتب الاتحاد السوفييتي مقراً لهجرته، وقام هناك بدورٍ هامٍ في ترجمة العديد من الأعمال الأدبية الروسية ـ السوفييتية إلى اللغة العربية، وعمل العديد من السنوات في تأليف كتاب عن القضية الفلسطينية، وعن المآسي الكبيرة التي عانى منها الشَّعب الفلسطيني في النضال من أجل العودة إلى وطنه.

ولقد خصص مواهب الكيالي العديد من سنوات حياته للكتابة في مجال أدب الأطفال، الذين بثَّهم حبه وعطفه وحنانه من خلال كتاباته وترجماته، وغالباً ما كان يقول في أحاديثه:

«إن الطفل زهرةً ناعمةً، ذات عبيرٍ خاص، فعلى كُتاب البشرية جمعاء، وخاصة على من يكتب منهم للناشئة، أن يوجهوا عنايةً خاصةً لهذا العالم الغني، ويجب على هؤلاء الكتاب، الذين تُمسك أياديهم بالأقلام أن يتلمسوا باليد الأخرى هذه الزُّهور برعايةٍ وإخلاصٍ دون أن يسببوا لها أي خَدشٍ أو جَرحٍ يؤذيها ويذبلها[118]».

وكان مواهب الكيالي قد حضر سابقاً العديد من المؤتمرات الأدبية العالمية، ومن بينها مؤتمر الكتاب السوفييت عام 1955، فألقى باسم الوفد السوري إلى المؤتمر كلمةً قال فيها منطلقاً من فكره الإنساني التقدمي ومعبراً عن أهداف ومبادئ رابطة الكتاب السوريين بالنسبة لعدَّةِ قضايا تخصُّ تطور المجتمع العربي السوري: «إن بلداتنا قد حصلت على الاستقلال من نير الاستعمار الأجنبي منذ فترة وجيزة، ويناضل شعبنا الآن من أجل الاستقلال الكامل، ومن أجل السِّلم في كل العالم، إن هذا يضطرنا نحن الكُتَّاب العرب في سورية أن

[118] في لقاء لمؤلف هذا الكتاب مع الكاتب مواهب الكيالي موسكو. 1974.

نخدم شعبنا بعقيدتنا وبكل ما نملك، وأن نناضل من أجل طموحاته، وقبل أي شيءٍ العيش في حُريةٍ وسلامٍ، وإننا نطمح في نتاجاتنا إلى التصوير الواقعي الحقيقي للإنسان، الذي هبَّ مُناضلاً من أجل تحرير الناس من المصائب والحرمان، ومن أجل الدفاع عن كتبنا، وأطفالنا، والأزهار، وضد كل من يسبب لهم الموت[119]».

وفي القصة القصيرة «الموكب الحزين» التي دخلت في مجموعته «المناديل البيض»، نلاحظ أنه ولأول مرة في تاريخ الأدب السوري المعاصر، قد ناقش الكاتب موضوعاً جديداً كُلَّ الجِدَّة، إذ تمكن من عكس مصير العامل الذي امتلك سُبل المعرفة، وأصبح يدرك الأسس الحقيقية للفوارق الطبقية والاجتماعية والاقتصادية، كما فهم ماهية وجوهر الظروف الصعبة، التي يعمل فيها العمال في مختلف الحِرَف، ويبين المؤلف الظلم والاستغلال، الذي يلحق بهم بعد الحصول على الاستقلال، في ظِل الحكومات الرجعية.

بينما تناول الكاتب مواهب الكيالي في أقصوصته «الثأر» بعض جوانب نضال الشَّعب العربي السوري ضد الاستعمار الفرنسي، فبين وحشية الاستعمار، وسبل القهر والظلم الذي مارسه ضِدَّ أبناء الشعب العربي السوري، ويبين المؤلف أن الشعب يحقق المعجزات بقدرة الأبناء الأبرار الذين يذودون عن أرضه ببسالة وشجاعة.

وتتسم نتاجات مواهب الكيالي بالأسلوب الشَّيق، واللغة العربية المتينة، وينسجم القالب الأدبي مع المحتوى الفني، وسمو الموضوع، وضرورة حَل المعضلات الملحة، وأبدع الكاتب مواهب الكيالي في مجال الحبكة الأدبية الفنية الرائعة، إذ تسلسل بالأحداث بشكلٍ واقعيٍّ ومنطقي، ليصل إلى الذروة الأدبية دون أي تكلُّف، كل هذا وغيره جعل نتاج مواهب الكيالي يحتل مكاناً هاماً في تطور

---

[119] مواهب الكيالي، من وثائق المؤتمر الثاني للكتاب السوفييت، الجريدة الأدبية، 1955/1/14، ص4 (باللغة الروسية).

obeikandi.com

الأدب العربي المعاصر، وخاصة في مجال القصة القصيرة، وحسبي أنه يأتي في الدرجة الثانية بعد محمود تيمور.

ولقد تمكَّنَ مواهب الكيالي وغيره من الكتاب الواقعيين التقدميين أن يساهموا مساهمةً فعالةً في القضاء على التيارات الأدبية الأخرى التي حاولت أن تشغل الأدب بقضايا لا تهم الشَّعب نهائياً، وفي هذا المجال عمل كُتاب الرابطة ضِد الاتجاه الشكلي، وتمكنوا من الحد من نشاطهم، وحصل هذا بسرعةٍ لأن الشكليين في الأدب العالمي لم يكونوا مسلحين بنظريةٍ علميةٍ واقعية، ولم تكن لديهم القدرة التنظيمية للوقوف ضِدَّ الاتجاه الواقعي المتقدم، حتى أن زعماء هذه المدرسة الشكلية في الأدب السوفييتي تراجعوا عن مواقفهم السابقة وانتقد كل من شكولوفسكي وايخينباوم السوفيتيين الأخطاء التي ارتكبوها، وقد سقطت المدرسة الشكلية وتحوَّلَ أكثر مؤيدوها إلى العمل ضمن إطار المدرسة الواقعية، وهذا ما تمَّ أيضاً في الأدب العالمي ككل، وانعكس هذا النضال في الأدب العربي ضِدَّ الاتجاه الشكلي في مقولات العديد من الكتاب، فقال ليان ديراني على سبيل المثال: «إننا ضِدَّ الأدب الذي يهتم بالتلاعب بالألفاظ، ولا يُعبِّر عن حقيقة المسائل التي يعاني منها شعبنا، إننا جميعاً نطمح لخلق النتاجات الأدبية، التي كان بإمكانها عكس مشكلاتنا الاجتماعية والقومية، الأدب الذي كان بإمكانه أن يسير بمجتمعنا إلى الأمام، ويحدد له الطريق نحو التحرر، ويصوره أحياناً تصويراً برَّاقاً، ويعكسه على أنه مجتمع خامل لا يستحق الحياة[120]».

ولقد خاض الكاتب السوري المعروف حنا مينه غمرة الصراع إلى جانب رفاقه وزملائه في رابطةِ الكتاب السوريين ضِدَّ شتى الاتجاهات التحريفية، التي كانت تغمض العين عن الواقع المر القاسي للشعب العربي السوري، وتنوي أن تعود بالأدب إلى عصور عتبات القصور، والمديح والرِّثاء كما انتقد انتقاداً لاذعاً

[120] ليان ديراني، مجلة «الثقافة الوطنية» 1956، العدد 4، ص80.

الاتجاهات الرجعية الانحطاطية، إذ قال مُخاطباً ممثلي هذه الاتجاهات: «إنكم أيّها السادة تعرفون مكانكم، إن أدبكم ليس أدباً عربياً، وأن هذا الأدب الذي تزعمونه بمثابة ورقة صفراء على شجرةٍ، سيأتي الوقت الذي ستسقط فيه هذه الورقة وتسحق وتضيع بين حبات التراب[121]».

هذا ولقد واجه الكتاب السوريون التقدميون الكثير من الصُّعوبات في الدِّفاع عن مدرسة الواقعية في الأدب، والدفاع عن الأدب السوفييتي الذي أرسى قواعد وأُسس المدرسة الواقعية الاشتراكية، وغالباً ما كان يتهم أنصار الاتجاهات الرَّجعية الكتاب التقدميين بشتى الاتهامات الجائرة منها الانقياد الأعمى للأدب السوفييتي، والكسموبولتية وغيرها، إلا أن هذه الاتهامات لم تثنِ عزم الكتاب ـ أعضاء الرَّابطة في الدِّفاع عن الأدب الإنساني العالمي ومنه الأدب السوفييتي، ورأوا أن هذا العِداء للأدب السوفييتي هو عِداءٌ موجَّه ضدِّ النظام الاشتراكي، وأدركوا جيداً أن من يدعم هذه الاتجاهات الرجعية التحريفية هي الدول الاستعمارية وأعوانها من الذين يرون في النظام الاشتراكي وأدبه تهديداً لمصالحهم وجشعهِم الاستغلالي.

ولقد لعبت الأوساط الإمبريالية الرَّأسمالية والرجعية دوراً قَذراً للغاية في نشرِ شتى الدِّعايات المغرضة التي من شأنها تشويه الاشتراكية ومبادئها الإنسانية، كما عملت الأوساط الرجعية للحدِّ من انتشار الكتب السوفييتية في البلدان العربية، وقد أشار رئيس رابطة الكتاب السوريين مواهب الكيالي إلى هذه الناحية عندما قال: «إنه عمل شاق للغاية، أن ننشر ونوزِّع مثل هذه الكتب التقدمية في العالم، فكل القوانين المعادية للشعب، في العالم، تعتبر الأدب المدافع عن مصالح الشعب، أدباً مخرباً، وكل من يساهم في كتابتها أو نشرها أو قراءتها مخالفاً للقانون، ويلاحق ويسجن[122]».

[121] حنا مينه، مجلة «الآداب الأجنبية»، موسكو 1959، العدد 3، ص250.

[122] مواهب الكيالي، «الجريدة الأدبية» السوفييتية، موسكو 1955/1/4، ص4.

obeikandi.com

ناهيك عن هذه الصعوبات، التي تُعرض لها الكتاب ـ أعضاء الرَّابطة في نشر الأدب التقدمي المفعم بالأفكار الإنسانية التقدمية وانتشار نتاجات الكتاب السوفييت المشاهير في البلدان العربية، لَعب الكتاب السوريون التقدميون من أعضاء الرابطة دوراً هاماً في هذا المجال، فقاموا بكتابة الكثير من الدراسات والمقالات النقدية عن الكتاب السوفييت وعرفوا بهم القراء العرب، ومن يجيد اللغة الروسية أو لغة أجنبية كالفرنسية والإنكليزية كان يقوم بترجمة النتاجات الأدبية الشهيرة لغوركي، وشولوخوف وليونوف، وسيمونوف وتشنكيز ايتماتوف، ورسول حمزاتوف وغيرهم، ولقد أعرب حنا مينه عن رأيه بخصوص الأدباء الروس ـ السوفييت حيث قال:

«إننا نعرف ونحب أ. بوشكين، ل. تولستوي، ف. دوستويفسكي، م. غوركي، ف. ماياكوفسكي. م. شولوخوف، أهرنبورغ، ن. تيخنيوف، واستفدنا من نتاجاتهم التي ترجمت إلى اللغة العربية، وتأثر الكُتَّاب السوريون أشد تأثير بالنِتاج الكبير للأدباء السوفييت، وخاصةً بالطرق الإبداعية الفنية والصور الرَّائعة، وتأثرنا إلى أبعد الحدود بمذهب الواقعية الاشتراكية...[123]».

الأدب العالمي والأدب العربي:

ومن بين القضايا والمشكلات التي اهتم الكتاب الواقعيون التقدميون في سورية بعكسها كانت مشاكل العمال والفلاحين، ولم يكن هذا الأمر مجرد مصادفة عابرة، ولكنَّهُ ناجم عن طبيعة الكُتَّاب أنفسهم ومن واقعهم الطبقي السيئ، فالكثير من الكتاب التقدميين قد خرجوا إلى جماهير القراء من بيوت العمال والفلاحين الفقراء، وعملوا معهم سنوات طويلة من حياتهم، وعانوا من الفقر والبؤس والتَّشرد والحرمان.

[123] حنا مينه، مجلة «الآداب الأجنبية» السوفييتية، موسكو 1957، العدد 5، ص250

لهذا ولغيره تمكَّنَ الكُتَّاب ـ أعضاء الرَّابطة من عكس حياة أهاليهم من العمال والفلاحين بكل مضامينها المتنوعة، وطرحوا حلولاً موضوعيةً للتخلص من الفَقر والجهل، وإن دلَّ هذا على شيء، فإنَّما يدلُّ على تكوُّن بعض عناصر المدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي السوري المعاصر، ونلاحظ هذه البوادر في قصة مواهب الكيالي القصيرة «الموكب الحزين»، و«حفرة على الجبين» لسعيد حورانية، و«قلب الغوطة» لوصفي البني وغيرها.
ومن المهم الإشارة إلى أن الأدباء ـ أعضاء رابطة الكتاب السوريين قد تنبهوا لمسألةٍ هامةٍ جداً إذ ابتعدوا قدر الإمكان عن الطرق التصويرية الفوتوغرافية وعن الوعظ الممل، وأخذوا يعكسون في نتاجاتهم الأبطال الحقيقيين الذين يقررون مصيرهم بأنفسهم، ويقودون النِّضال ضِدَّ التفاوت والاستغلال الطبقي، والاضطهاد القومي والاجتماعي، كما عمل الكتاب لجعل لغة نتاجاتهم الأدبية لغةٍ سهلةٍ سلسة، قريبة إلى مستوى العُمال والفلاحين ومتناسبة مع أمزجتهم وأعرافهم الاجتماعية، وتقاليدهم، ولقد كان موضوع العمال والفلاحين موضوعاً جديداً بالنسبة للأدب العربي عامة والسوري خاصة، فبرز هذا الموضوع في هذه الفترة (الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين) نتيجة الظروف التاريخية الموضوعية، التي ساهمت في تكون الطبقة العاملة ـ القوة الأساسية الفعالة في تطور المجتمع، وأن يصبح الفلاحون الفقراء، الذين يشكلون نسبة عظمى بين الفلاحين رديفاً ثورياً هاماً وحليفاً أميناً للطبقة العاملة، وهذا ما ساهم في ظهور الكتاب التقدميين من بين صفوف الشَّعب، وكان بإمكانهم أن يتفهموا هذه القوة العظمى الكامنة في اتحاد العمال والفلاحين، ولم يتوقف الكتاب التقدميون عند عكس نضالات وواقع العمال، بل أكدوا على دورهم القيادي التاريخي في الحركة الثورية، وطالعنا هؤلاء الكتاب على صفحات نتاجاتهم بأمثلة حيَّة إذ قاموا بعكس حياة أبطال حقيقيين من وسط العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين الذين يخوضون نضالاً مُنظماً ومبرمجاً للتحرر

الكامل من الاستغلال، والتخلف، ولقد سار هؤلاء العمال في مقدمة المظاهرات والإضرابات وحملات الاحتجاج معبرين عن سخطهم وغضبهم ضِدَّ المستغلين وعلى سبيل المثال، بطل قصة ليان ديراني «حيرة» حيث نتعرف إلى البطل العامل عبد الخالق، الذي أصبح وبالتدريج يستوعب المشاكل الطبقية والاجتماعية التي تحيطُ به، ويعرف من هو عدوه، ومن هو صديقه، وأخذ يناضل ضد الأعداء بكلِّ ما يملك من قوة، فيقول في إحدى خُطبه: «لماذا يرى صاحب المصنع أن من واجبنا أن نعمل لصالحه، إننا لا نوافق على هذا، ولا نقدر على الصَّبر، إن هذا استغلال حقيقي، استغلال بَشع... إنك فاقد لجميع حقوقك وكرامتك... ومن الذي أعطاه هذا الحق؟[124]».

هذه الأمثلة، والاستفسارات التي، يطرحها العامل عبد الخالق على نفسه وعلى أصدقائه، تجعله في حيرة دائمة في بداية الأمر، وتدفعه لمتابعة البحث واستقصاء الحقائق، وطرح أسئلة أخرى على الآخرين أحياناً، وعلى نفسه أحياناً أُخرى: هل هذا الرأسمالي صاحب المصنع يملك عقلاً مُبدعاً أكبر من عقل الآخرين، يمكنهُ من استغلال جهدي، وجهد الآخرين؟ هل حاز على هذه الأملاك نتيجة الورثة عن أبيهِ وحده؟ هل كان أبوهُ يستغلُّ أبي أيضاً، كما يستغلني هو الآن؟... وهكذا تتوالى الاستفسارات النوعيَّة، وتتكامل المعرفة حتى يُصبح من الواضح للقارئ بأن عبد الخالق ورفاقه سوف يقفون إلى جانب الثورة في حال قيامها. لأنَّهم هم أصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة.

وينعكس موضوع النضال العُمالي بجلاءٍ أكثر من خِلال الصِّراع الطبقي في أقصوصتي ليان ديراني «أنا عامل» «1940» «شرود»، التي جاء في إحدى صفحاتها ما يلي:

«إن الأقوياء يأكلون الضُّعفاء، وينهب الأغنياء الفقراء، وتساعد هذه الثروة المكونة من السَّرقات، اللصوص في أن يصبحوا في مقدمة المجتمع، كُلُّ هذا

---

[124] ليان ديراني، مجموعة «درب إلى القمة» دمشق 1952، ص46.

يحدث في الوقت الذي تنادي فيه سُلطة الأغنياء الناس إلى تحقيق مبادئ المساواة والعدالة...[125]».

بينما تناول الكاتب مُصطفى الحلاج موضوعاً من صَلب الحياة هي مسألة كثرة الأطفال في الأُسرة الواحدة، والذين يعانون من الجوع والأمراض، وخاصة في ظل الظروف الاجتماعية القاسية، فلقد صوَّرَ المؤلف في أقصوصة «الولد الخامس» كيف تحوَّلت ولادة الطِّفل في تلك الأُسرة الفقيرة إلى مصيبة، ومأساة فعلية: من أين سوف يحصل الوالد على الثياب للمولود الجديد؟ ومن أين يؤمن لهم الطَّعام، والعقدة في القصة تنحصر في أن الأب يُحِبُ الأطفال الخمسة، ويعاني في عالمه الداخلي من الحسرة والكآبة والقلق على مصير وصحة كل منهم، كان الوالد يعمل نجَّاراً مُتواضعاً، ولا يتقاضى لقاء عمله ما يكفي رمق الأولاد من الفتات، ولكنَّهُ رَغم كل ذلك كان ينظر إلى المستقبل بعينين مِلؤهما الثقة والأمل، بأن الظروف سوف تتحسن والأطفال سيكبرون ويعملون، ولكن هذا التفاؤل كان بعيد الأُفق، ولم تتضح آفاق تحقيق أي شيءٍ منهُ، وعلى الرَّغم من هذا الوضع القائم فإنَّ الأقصوصة تنتهي بشكلٍ مُتفائل.

هذا وقد أولى كُتَّاب الرَّابطة اهتماماً خاصاً لموضوع الطبقة العاملة في نتاجاتهم. فلدى الكثير منهم بعض الصور الأدبية التي لا تُنسى من حياة العُمال في أحيائهم الفقيرة وفي مصانعهم وشركاتهم، ولقد سجَّل الكاتب السوري حنا مينه، ذو المنبت الطبقي العُمالي الفقير، وأحد الأعضاء المؤسسين لرابطة الكتاب السوريين صفحة جديدة وهامةً في تاريخ الأدب السوري المعاصر.

ولقد خصص العديد من نتاجاته القصصية والروائية لتصوير أوضاع العمال والفلاحين، ويلاحظ القارئ هذا في روايات «المصابيح الزرق»، «الشراع والعاصفة»، و«الثلج يأتي من النافذة»، و«بقايا صور»، و«المستنقع» وغيرها.

ففي قصته «المصابيح الزرق» /1954/ يلاحظ القارئ أن هناك شيئاً جديداً

---

[125] مجلة «الطريق» 1946، العدد 4، ص9.

للغاية في الأدب العربي السوري، بل وفي الأدب العربي المعاصر عامة، فلأول مرة في الأدب العربي تمَّ عكس حياة الطبقة العاملة الفقيرة، وبين كدحها، والمصاعب والمآسي التي تُعاني منها، وبين الدور الكبير الذي قامت به القوى العاملة في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، ومن خِلال شخصية بطل القصة "فارس" يقدم لنا المؤلف مثالاً ناجحاً عن العمال الذين يقدمون كل ما لديهم من أجل الدِّفاع عن الوطن.

وفي رواية «الشراع والعاصفة» يقدم حنا مينه بانوراما حياة المرفأ في اللاذقية، والصراع بين العمال من جهة والبورجوازيين أصحاب المصالح من ذوي الطباع الأنانية، من جهةٍ أخرى، ويبين المؤلف كيف أن الحس العمالي ينسجم كلياً مع المصالح الوطنية والتقدمية، ففي الوقت الذي يُناضل فيه الطروسي من أجل حقوقه وحقوق العمال، كانوا يرون في المعلم "كامل" صديقاً مخلصاً ووفياً له ولجميع العمال، ولهذا يسيرون خلفه مدافعين معاً عن الاتحاد السوفييتي، ويقفون بكل قوتهم ضد النازية والفاشية اللتان حاولتا أن تغرقا العالم ببحر من الدم.

وفي روايةِ «الثلج يأتي من النافذة» يصف المؤلف حياة العمال وصفاً دقيقاً، ويبين ظروف العمل التي تحيط بهم في لبنان، والمصاعب التي يلاقونها في الكدح من أجل لقمة العيش، ويتناول حنا مينه في روايته كافة الشَّرائح الاجتماعية خلال فترة يحددها المؤلف بنهاية الخمسينات.

وفي هذه الرواية يتناول حنا مينه البعض منهم، ويصفهم من خلال التجربة التي يعانون منها، ويبين كيف تبنى العامل خليل الذي اعتاد على الكدح والصعوبات رفيقه المثقف ودعمه بكُلِّ ما لديه من إمكانية، ولم نجد في الأدب العربي وصفاً لوضع المثقف الذي تضطره الظروف للعمل بأعمالٍ قاسيةٍ لم يعتد عليها سابقاً، كما نجده عند حنا مينه، وخاصةً لأن المؤلف استفاد في تناول هذا الموضوع من تجربته أو من تجربة بعض رفاقه المقربين، وهذا قد قرَّبَ حنا مينه

من المواضيع العالمية وبأسلوبٍ محلي ووطني.

ومن بين كتاب الرَّابطة، قام الكاتب القصصي المعروف سعيد حورانية بدورٍ هامٍّ لتجسيد أُسس المدرسة الواقعية في الأدب العربي، ولقد اشتهر هذا الكاتب بواقعيَّتهِ الصَّارمة، ووحدة اللغة، ورشاقة الأُسلوب، وركَّزَ اهتمامه من أجل عكس نضال الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين، ولقد تأثر سعيد حورانية كغيره من الكتاب التقدميين بالأدب السوفييتي، فكتب في أقصوصته «حفرة على الجبين» وتمكَّنَ من الوصول بالأحداث للذروة، ولم يعد هناك إلا أن يصطدم الأبناء مع أبيهم الرأسمالي، وأن يقفوا إلى جانب العمال، ويؤيدوا مطالبهم، ويُضرِبوا عن العمل معهم، حتى أخذ الأبناء يرفعون شعارات: «عاش اتحاد العمال، يسقط المستغلون!»، ونتيجة هذا يسجن كل من "مصطفى" و"سليم" من أبناء الرَّأسمالي ذاته، كما يسجن معهم العديد من العمال، وأخيراً وفي نهاية القصة يتضح أن "مصطفى" و "سليم" قد ربطا مصيرهما بمصير العمال وكافة الكادحين، وأصبح من المستحيل فصلهما عن بعضهما البعض.

إن نتاج الكُتَّاب السوريين التقدميين في الأربعينات والخمسينات شكل خطوةً هامةً إلى الأمام، ولكنه لم يصل إلى مستوى الكتاب العظام في تصوير الصراع الطبقي، وعكس البطل البروليتاري، الذي يقود النضال من أجل الثورة، كما كان الأمر عند كُتَّاب الواقعية الاشتراكية وفي مقدمتهم مكسيم غوركي. ومهما يكن فإن هذه النتاجات الأدبية ـ أقصوصةً كانت، أم قصةً قصيرة، أم قصةً طويلة، أم رواية، قد وضعت حجر الزَّاوية في الأدب العربي التقدمي المعاصر وشكلت هذه المرحلة من تاريخ الأدب العربي السوري فترةً ذهبيةً حتى الوقت الحاضر، ومن غير الطبيعي أن كُتابنا قد صوروا أبطال نتاجاتهم وكأنهم يحيطون بكل أبعاد القصَّةِ الثورية.

وكأنَّهم يعرفون جميع الطُّرق المؤدية إلى المصير النهائي، وعلى أية حال فإن أقاصيص «حفرة على الجبين» لسعيد حورانية، «حيرة» للكاتب ليان ديراني

و«الكاتب المضرج» لوصفي البني، وغيرها من القصص التي تهدف إلى تصوير العامل الواعي الثوري، وسطَّرت صفحةً ناصعةً في تاريخ الأدب العربي المعاصر.

النشاط السياسي والاجتماعي لكتاب الرابطة:

لقد شارك كتاب الرابطة مُشاركةً فعَّالةً في الحياة السياسية والاجتماعية، ليس على مجال سورية فحسب، بل على مستوى الوطن العربي ككل، وعلى سبيل المثال وقفوا ضد التضييق على الحريات الديمقراطية أيام الوحدة من قبل نظام السِراج المخابراتي، وأرسلوا العديد من الرَّسائل إلى الرئيس جمال عبد الناصر يحتجُّون فيها على اعتقال التقدميين المصريين والسوريين، وطالبوا بإطلاق سراحهم فوراً، كما شارك الكُتَّاب السوريين التقدميين في حملة الانتخاب البرلماني في سورية، وقدموا المرشحين الذين يمثلون جماهير الشعب الكادح بفئاتهِ الواسعة، وأثر هذا النشاط السياسي والاجتماعي، وتحت الضغط السياسي عليهم، اضطر الكُتَّاب ـ أعضاء الرابطة ـ إلى الهجرة خارج سورية، إذ سافر سعيد حورانية وشوقي بغدادي إلى لبنان، وهاجر حنا مينه إلى الصين، ومواهب كيالي وبعض الكتاب الآخرين إلى الاتحاد السوفييتي، والبعض الآخر إلى بلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا وغيرهما من الدول الاشتراكية.

وإذا استعرضنا جميع نتاجات الكتاب التقدميين في الأربعينات والخمسينات، فإننا نلاحظ أنها تمتلئ بالروح الوطنية الحقَّة في النضال ضِدَّ الاستعمار الفرنسي قبل الحصول على الاستقلال، ومن أجل استكمال الاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي، والعمل ضد الرجعية الداخلية التي تشكل قوة عميلة للاستعمار على اختلاف أشكاله، ويتضح هذا من خلال قصة حنا مينه «المصابيح الزرق» وغيرها من القصص ذات الطابع الوطني التقدمي، وفي قصة «مدينتي» يبين حنا مينه كيف استولت الرجعية على السُّلطة، وأخذت تضيق الخناق على القوى الديمقراطية الثورية، وانعكس هذا من خلال حكم حسني

الزعيم الذي تولى أمور السلطة منذ عام 1948، ولهذا كتب مينه يقول: «... وهكذا، لقد امتدت اليد الشِّريرة نحو دمشق وهي تحمل خنجراً، فطعنتها بقسوة، وهكذا نزفت مدينتي دماً... لقد أصبح يحكمها رجلٌ أراد أن يُسيِّرَ البلد بالقوة، ولكنه أقل من أن ينال من كرامتها، اسم هذا الإنسان حسني الزَّعيم[126]».

دور حنا مينه في تطوير المدرسة الواقعية:

من الضروري التوقف عند نتاج الكاتب السوري المعروف حنا مينه، هذا لأن نتاجه يعتبر بمثابة حجر الزاوية في المدرسة الواقعية في الأدب العربي السوري والعربي عامة، فهو أول كاتب عربي سوري اتضحت في نتاجه بعض ملامح وبوادر مذهب الواقعية الاشتراكية، ويلاحظ القارئ أن نتاج حنا مينه يعكس ذلك التأثير الإيجابي من جانب الأدب السوفييتي على الأدب العربي، كما يلاحظ أنَّ حنا مينه قد استفاد كثيراً من تجربة مكسيم غوركي الأدبية وغيره من الكتاب السوفييت، ولقد اتفق النقاد على أنَّ حنا مينه هو أحد أعلام الأدب الواقعي العربي.

وتمتاز نتاجات حنا مينه، كنتاجات مكسيم غوركي، بقدرتها التأثيرية، وبعكسها للقضايا التراجيدية المأساوية، التي تقوم بدورٍ توجيهي وتحريضي، وتعليم الصمود والتصدي.

وبتناول أهم القضايا المعاصرة التي يُعاني منها المجتمع في تطوره، والعلاقة الدياليكتيكية، بين الإنسان والمجتمع، ويركِّز حنا مينه على عالم الإنسان الداخلي، وسيكيولوجيته، وبحثه الدؤوب عن المكان المناسب له في الحياة.

ولد حنا مينه عام 1924 في أسرةٍ فقيرةٍ للغاية. ولهذا كان عليه كملايين أبناء

[126] حنا مينه، من أقصوصة «مدينتي» مجلة «الثقافة الوطنية» 1959، العدد 5.

obeikandl.com

الطبقة الفقيرة، أن يبدأ حياته العملية القاسية مبكراً، فجرَّبَ الكثير من الأعمال والحِرف، وانتقل مينه مع والديه عام 1939 إلى مدينة اللاذقية الساحلية، وهناك فتح دكان حلاقة بسيط، وكان معظم زبائنه من العمال والفلاحين والحماليين في تفريغ البواخر وتحميلها، وغالباً ما كان يقص هؤلاء الزوار شتى الأقاصيص الطريفة من حياتهم، حتى أصبحوا يرون فيه صديقاً يتقاسمون معه الأفراح والأحزان، وعندما احتدم الصِّراع من أجل إخراج الجيوش الأجنبية من أراضي سورية، شارك حنا مينه مشاركةً فعالةً في المظاهرات التي رفعت الشِّعارات ضد الاحتلال الفرنسي، من أجل الاستقلال، وفي مقدمة الشِّعارات شعار: «يسقط الاستعمار الفرنسي!»، ونتيجة هذا النشاط السياسي اعتقل حنا مينه وسجن.

وفي غياهب السجون التي ساد فيها التعذيب الشديد الوحشي، ومن خلال تلك الظروف القاسية التي يعيش فيها المساجين السياسيين، تمكَّنَ حنا مينه من بث روح الصمود بين المساجين، واشتد عودهُ وتمرَّسَ على النضال العنيد، وكان السِّجنُ بالنسبة له بمثابة (الدرس النضالي الأول) وأشار إلى هذه المسألة فيما بعد إذ قال: «إن السِّجن بالنسبة لي كان معلماً عظيماً، وخلال وجودي في السجن أدركت قيمة الكلمة المطبوعة[127]».

بعد الخروج من السجن كتب حنا مينه عدَّةَ أقاصيص، كان أبطالها من الناس الفقراء: عُمال ومثقفين، ولقد حازت هذه الأقاصيص على اهتمام القُرَّاء ليس في سورية فحسب بل في الدول العربية الأُخرى، ولقد اهتم القُراء وأُعجبوا إعجاباً كبيراً بعكسِ الرُّوح الوطنية الحقَّة في نتاجاتهِ، والتف أكثر القراء حول الطليعة الواعية التي رفعت شِعار، النِّضال ضد المحتلين الأجانب، والحصول على الحريَّةِ والسِّيادة للشعب السوري بأكمله.

---

[127] تشوغونوف ك. المقدمة لرواية حنا مينه «الشراع والعاصفة» (باللغة الروسية)، موسكو 1971، ص6. ولقد صُبغت هذه الرواية في عام 1971 بعدد 50000نسخة

ويعدُّ حنا مينه من الكتاب السوريين الأوائل (بعد الحرب العالمية الثانية)، الذين تمكنوا بعبقريةٍ نادرةٍ من عكس حياة الشَّعب بكل أبعادها، ومما يُثير الاهتمام لدى القراء في نتاجات حنا مينه واقعية الصور الأدبية للحياة الاجتماعية للشَّعب.

والأخلاق والعادات والتقاليد والظروف الاجتماعية في الأحياء العُمالية والقرى الفلاحيَّة، فهو يعكس حياة أبطاله كشاهد عيان، دقيق الملاحظة، ولقد خصَّصَ مينه نشاطه الأساسي من أجل تصوير الإنسان الجديد ـ المناضل من أجل الحريَّةِ والسَّعادة.

ومن أهم المواضيع الأساسية في الأدب العربي بعد الحرب العالمية الثانية، كان موضوع إيقاظ العرب من سباتهم الطويل، الذي دام عدَّةَ قرون، ودفعهم للنضال من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، وخلال هذا النضال فقد ظهر الكثير من المتطلبات الجديدة لتكوين البطل الأدبي الجديد المتناسب مع المهام العظام، وفي هذا المجال، فإنَّ نتاجات غوركي، شولوخوف، ليونوف، وغيرهم من الكتاب السوفييت قد ساعدت بدرجةٍ كبيرةٍ الكتاب العرب التقدميين في البحث عن الطُّرق والأساليب الأدبية الجديدة لعكس الواقع، وتقويم الإنسان تقويماً إيجابياً حسب المعطيات الثورية المعاصرة، وبالطبع فإنَّ كل كاتب قد وجد في نتاجات غوركي، وشولوخوف وليونوف ما يتلاءم مع عالمه الروحي، وبحوثه الفنية الأدبية.

إن المقارنة بين نتاج الكاتب الروسي العظيم م. غوركي ونتاج حنا مينه ليس مُجرَّد مصادفة، بل تمليه الكثير من الحقائق الواقعية التي تجمع بين نتاج الكاتبين، وكانت نتاجات مكسيم غوركي بالنسبة لحنا مينه، كما بالنسبة للعديد من الكتاب التقدميين في شتى أنحاء العالم، مصدراً للإلهام والإيحاء، ولقد قام حنا مينه متأثراً بنتاجات غوركي، بترجمةِ بعضها إلى اللغة العربية، وعَمل كل ما بوسعه من أجل تعريف القُرَّاء العرب على حياة وأدب

مكسيم غوركي، زِد على ذلك أن سيرتي حياة الكاتبين فيهما الكثير من الشُّبهِ والمعاناة.

ويُعتبر نتاج حنا مينه بمثابة الحد الفاصل بين المرحلة القديمة في الأدب العربي السوري، والمرحلة الجديدة في تطور الفن الواقعي، ويمتاز نتاجه بالصبغة الاجتماعية الواقعية، ويتسم بالكره الشديد للمستغلين من الطبقة البرجوازية، والتعاطف الكبير مع الطبقات المظلومة، وتحتوي الصور الأدبية على الكثير من المعاني والأفكار والمبادئ التي استخلصها الكاتب من الحياة وعكسها في قالبٍ فنيٍّ للشَّعبِ عامةً، وحلم حنا مينه ككافة أبناء الشعب العربي بالتخلص من ظلم واضطهاد الاستعمار الفرنسي، ومن الاستغلال في عهد الحكومات البرجوازية، ولقد تطلع إلى المستقبل بعينين متفائلتين، إذ كان على ثقةٍ تامةٍ بأنَّ العدالة والحرية سوف تتحققان رَغمَ الصِّعاب الكثيرة، ويرى أن مُخالطة الناس والتعرف إلى حياتهم عن كَثب هو المُعين الأساسي، الذي يُغني عالم الكاتب ويصقل مواهبه، فيقول في هذا المجال: «خليقٌ بنا، أدباء وفنانين وقادة منظماتٍ شعبيةٍ ومواطنين يريدون الخير لأنفسهم وبلادهم، أن نفعل فعل الرِّجال الأفذاذ، فنذهب إلى الناس ونتعرف إلى حياتهم، ليصبح في وسعنا أن نتحدث عنها وأن نزيل ما فيها من بؤس وتخلف، ثُمَّ خليقٌ بنا أن ننظر إلى الأشياء من كل زواياها، وأن نقبلها على مختلف وجوهها، وأن نطرد الكسل الذهني والبدني في سعينا إلى المعرفة، وبذلك تتجنب النظرة الأُحادية الجانب، ونصون رأينا وصنيعنا الفني من الزيف الناجم عن ضحالة الثقافة أو التجربة، فالمسألة في الإبداع لا تتوقف على الرَّغبة وحدها، ولا على الحاسة أو الموهبة وحدها، إن المسافة بين الرَّغبة وتحقيقها كبيرة، والموهبة مهما عظمت، لا تفيد من بدون معرفة ومن دون عملٍ يضعها موضع التطبيق[128]»، وفي هذا المجال بالذات نرى أن

---

[128] حنا مينه، ناظم حكمت، وقضايا أدبية وفكرية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1971، ص299.

هُناك الكثير من التوافق بين رأي مينه وغوركي، إذ كتب مكسيم غوركي في هذا الموضوع ما يلي: «أصبحت إنساناً مسؤولاً عن نفسي منذ العاشرة من عمري، ولم يكن لدي أيُّ موردٍ كي أتعلم وكل ما فعلته أنني، قد أخذت التهم الحياة التهاماً، وأعمل حيثما تتاح لي الفرصة أن أعمل، إن نبض الحياة بعث في نفسي الدفء، عرفت الصالح والطالح، وشربت العلقم، وأخيراً، أعطتني الحياة في حركتها الطاقة، وقدرة الإرادة، وها أنا أسير منطلقاً بأقصى ما عندي من السرعة».

هذا وينتقد حنا مينه كما انتقد مكسيم غوركي من قبله الكتاب المتبرجزين الأرسطوقراطيين الذين أخذوا يكتبون عن حياة العمال والفلاحين، وهم يجلسون في بيوتهم المريحة والمكيفة بأحدث المكيفات، ويتذكر في هذا المجال قائلاً:

«إننا عندما نسمع محمد عبد الوهاب يغني «محلاها عيشة الفلاح» فلا نملك إلا أن نبتسم إشفاقاً على هذا الكلام المصنوع الذي لا يصوِّرُ عيشة الفلاح، لأنه لا يعرفها أصلاً، فلكي نصف الشيء بصدقٍ يجب أن نعرفه بصدقٍ، إن المعرفة النظرية والتجريبية، هي المعين الغني للأدب والفن، والشَّرط في المعرفة أن تكون تجريبية أيضاً لأن المعرفة النظرية المُستقاة من الكُتب قد تحمل إلينا تجارب الآخرين، ولكنها تظل تفتقر إلى تجربتنا نحن، إلى معاناتنا، فإذا لم نكملها بالمعرفة المستقاة من العيش بين الناس، تظل ناقصة، سطحية باهتة[129].

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب حنا مينه قد اقتفى أثر غوركي في تصوير عالم الإنسان البسيط الذي يحيا في «حضيض المجتمع»، كما عكس عالم المعوزين، والمتسكعين واللصوص والعاطلين عن العمل، وبالطبع إنَّ كل واحد منهما قد عكس هذه القضايا حسب طرقه وصوره الأدبية الخاصة، ففي الوقت

[129] نفس المرجع السابق ص293.

obeikandi.com

الذي تكلَّمَ غوركي عن البطالة في ظروف النظام القيصري والديكتاتورية المطلقة، وتسلط الطبقة الرأسمالية، صور حنا مينه العامل والفلاح السوري في ظروف النضال من أجل التحرر من الاستعمار الفرنسي، والحصول على لقمة العيش بآنٍ واحدٍ، وهناك بالطبع الكثير من السِّمات التي توحد بين تطلعات الأبطال عند الكاتبين، إذ أنهم يطمحون لبناء الحياة السَّعيدةِ النقيَّة، وأن يجدوا المكان المناسب لأنفسهم - حسب رغباتهم واختصاصهم - في الحياة العملية.

وغالباً ما كان هؤلاء الأبطال أو الشَّخصيات يعانون من عدم الوصول إلى أهدافهم، ويعيشون في ظل العوز والحرمان وخيبة الأمل، ولم يكن انسجام كل من مينه وغوركي مزاجياً فحسب، بل كان قائماً على مبادئ إنسانية تحلى بها كل من الكاتبين، وعلى أفكار سياسية اشتراكية آمنا بها وسخرا لها قسطاً كبيراً من حياتهما ونشاطهما العام.

وبغض النظر عن الفشل المؤقت الذي يعاني منه أبطال غوركي ومينه فهم أقوياء بإرادتهم، وشموخهم الإنساني، وعفة نفوسهم، وحبهم الحرية. ولهذا نجدهم وحتى الرَّمق الأخير من حياتهم يتسمون بأسمى السمات الإنسانية، حتى في أحلك الظروف وأقساها مرارةً، ولقد أحبَّ مينه المواضيع الاجتماعية الحساسة، وركَّزَ قسطاً هاماً من نشاطه الأدبي لتصويرها وعكسها على خير وجه، ولقد كانت أقاصيص وقصص وروايات الكاتب مسخرةً بشكلٍ كاملٍ من أجل عكس العلاقات الاجتماعية مُتعددة الجوانب في سورية (ينطبق هذا على الكثير من الدول العربية الأخرى) وعملية التحويل الثوري في البلد، وولادة الإنسان الجديد، الذي أخذ ينشط بالتدريج مُتسلحاً بأفكار النضال من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية، ويعدُّ مينه من الكُتَّاب العرب التقدميين، الذين أرادوا أن يعكسوا في نتاجاتهم، شتى الظواهر والمشاكل بواقعيةٍ جلية، فتوصل هؤلاء الكُتاب إلى رسم لوحةٍ لحياة الشَّعب العربي في نضالهِ من أجل السِّلم

والعدالة والحرية في السنوات العاصفة لحركة التحرر الوطني في العالم، كما تمكنوا من عكس الكثير من المعضلات الاجتماعية الحياتيَّة خلال الهزات الصَّعبة والعسيرة التي مرَّت على هذه المجتمعات، وعلى أيدي هؤلاء الكتاب رسم لوحات حيَّةٍ لأناس العمل، ولكل من يعشق الحرية ويرغب أن يعيش بعزةٍ وكرامةٍ.

ـ المصابيح الزُّرق:

في قصة «المصابيح الزرق» يقدم المؤلف حنا مينه للقُرَّاء في العالم العربي والعالم أجمع، لوحةً «بانورامية» عن الحياة الاجتماعية في سورية في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، لم يقدمها أحد كان من الكتاب العرب في هذه الفترة، وعند النظر بعمقٍ لبعض جوانب هذه القصة، من الضروري أن نتوقف عند ناحيةٍ هامةٍ، تقرِّبُ بين نتاجي غوركي وحنا مينه، إذ أن مينه عندما أخذ يرسم لوحة شخصية الشَّاب فارس في نتاجه (المصابيح الزرق) يستخدم ـ ليس عن قصدٍ مُسبق ـ تلك الألوان، التي استخدمها مكسيم غوركي عندما صوَّر بطل رواية «الأم» (فلاسوف) إذ أن كِلا البطلين لم يعملا بالسياسة، حتى لم يعرفا أبجدية السياسة، ولكنَّ الظروف الحياتية، وظروف العمل القاسية قد أجبرت كلاهما على التفتيش عن طريق الخلاص، وكلاهما أدركَ أن الخلاص يتم بالنضال وليس بسواه.

فالبطل فارس في قصة «المصابيح الزرق» شابٌّ فقيرٌ مُعدم، غير مُتعلم، كان بعيداً كُل البعد عن السِّياسة، ولكنه أبى أن يرضخ لظروف الاحتلال الفرنسي، وهبَّ مُقاوماً لشتى سُبل الاضطهاد الذي لحق بشعبهِ على أيدي المحتلين الفرنسيين، الذين ألحقوا بالشعب العربي السوري واللبناني والجزائري العوز والحرمان والتخلف لمدةٍ طويلةٍ من الزَّمن.

تجري أحداث القصة في بداية الحرب العالمية الثانية، وقد عمل مينه بدقةٍ من

أجل عكس صورة الشَّاب فارس على خيرِ وجهٍ كممثلٍ حقيقي للشَّعب العربي السوري، فهو منذ شبابهِ المُبكر أخذ يُفكِّر في أبعاد غياب العدالة الاجتماعية وجور واضطهاد المحتلين الفرنسيين، ولكن وعيهُ الثوري لم يكن يتجاوز بعد مرحلة النضال العفوي، لذا كان يُعرِب عن احتجاجه بواسطة الإضراب عن الطَّعام، على أثر هذا النشاط العفوي تزج سلطة الاحتلال بفارس في السِّجن، على الرَّغمِ من أنَّهُ لم يدخل السِّن القانوني للمحاكم، ويخرج من السِّجن بعد فترةٍ، إنساناً واعياً مُجرباً، بل رجلاً بكُلِّ معنى الكلمة، ولكن أين الطَّريق الصحيح للنضال، ربَّما لم يكن واضحاً لهُ.

بعد السِّجن يُعاني فارس من الحاجة أقصاها، فاضطره الأمر إلى التطوع في صفوف الجيش الفرنسي للمشاركة في الحرب العالمية الثانية، وعلى الرَّغم من أنَّ فارس أخذ يقوم بدورهِ داخل الجيش الفرنسي بالعمل من أجل محاربة قوى النازية المتمثلة بالفاشية الألمانية والإيطالية واليابانية، فإنَّ نظرتهُ لم تتغير نهائياً تجاه الجيش الفرنسي كجيش احتلالٍ لوطنه، وفي طريقهِ إلى الجبهة يستشهد فارس، ويأخذ رفاقه راية النضال من يده من أجل مُتابعة الطريق التي سار عليها فارس في مقارعة قوى الاحتلال، وفي النضال من أجل المستقبل المشرق للشعب عامة.

وأشار الكاتب سعيد حورانية إلى أهمية هذه الرِّواية التي نحن بصددها إذ قال: «رواية حنا الأولى المصابيح الزرق» كانت شيئاً جديداً في الأدب السوري، خط فيها الأسس الواقعية للرواية السورية، وقد أثارت مناقشات حامية في سورية ولبنان ومِصر، لقد كانت روحها الشَّعبية الآسرة وأسلوبها الحي البسيط يعطيانها نكهةً خاصةً، ولكن ما فيها من انقطاع النفس حيناً، وتقصد السخرية أحياناً أخرى، والاندفاع في وصف الطبيعة بشكلٍ يقطع حيوية الحوادث، ثم بعض اللوحات التقريريَّة التي تأثَّرَ فيها حنا من عدائه لنظرته الفن للفن، فانصرف فيها إلى تأكيد التزامه السياسي دون كبير نجاح، كل هذه

الأشياء كان انتقادها تجربةً ثمينةً لحنا الذي اكتشف أبعاده بصورةٍ أعمق[130].

ومهما يكن هُناك من نقاشٍ حول النتاج الروائي «المصابيح الزرق»، فإنَّهُ يعتبر نتاج هام، سجَّلَ به الكاتب صفحةً هامةً في تاريخ الفن الروائي في الأدب العربي عامة، ومن الضروري عند تناول نتاج حنا مينه الروائي التوقف وبهدوء عند صرحٍ روائيٍّ هامٍ يشكِّلُ خطوةً هامةً في تاريخ الأدب العربي، وهو رواية «الشراع والعاصفة» التي فتحت صفحة جديدة في مجال أدب البحر الذي غاب نهائياً من أدبنا العربي، الذي كان يقترب من الصَّحراء أكثر منه إلى البحر.

. الشراع و العاصفة:

إن رواية «الشراع والعاصفة» قد خصصها الكاتب من أجل عكس أحداث فترة الحرب العالمية الثانية بكل ما في هذه المرحلة من تعقيداتٍ وتناقضاتٍ متنوعة، وإذا كان البطل الأساسي في «المصابيح الزرق» لا يملك التصور الكامل عن الصراع بين قوى الخير والشر، فإنَّ الأبطال في هذه الرِّواية ينطقون بالواقع السُّوري في تلك السنوات، مُعبرين عن أبعادهِ بكُلِّ شجاعةٍ وإقدام.

بطل رواية «الشراع والعاصفة» يتحرَّك وينشط في ظروفِ بدءِ النِّضال المنظم من أجل إجلاء قوات الاحتلال الفرنسي عن سورية والشَّخصيات المتحركة في الرواية متنوعون وينشطون في شتى الاتجاهات وبدوافعِ سياسيةٍ وفكريَّةٍ مُختلفة: المعلم "كامل" يُساهم مساهمةً واعيةً ونشطة من أجل تحقيق النَّصر، بينما يعمل الآخرون مثل "مزهر" للحصول من وراء هذا الصِّراع على منفعةٍ شخصيةٍ، تدرُّ عليهم الأرباح الكبيرة، وفي الرواية توجد بعض الشَّخصيات غير الواعية، أمثال الحداد ""أبو حميد" الذين وقعوا تحت تأثير الدعاية الفاشية، وأخذوا يفرحون للانتصارات التي حققها هتلر وأعوانه، وأخذوا يرون عبثاً في

---

[130] سعيد حورانية، في مقدمة رواية «الشراع والعاصفة» بيروت بدون تاريخ، ص9.

الفاشية الألمانية التي تُحارب فرنسا وبريطانيا، حليفاً للشعب العربي، أما البورجوازية المتمثلة "بأبي رشيد"، فنجدها تساوم على أُسس القيم الوطنية من أجل الحفاظ على مصالحها في استغلال ونهب العمال والفلاحين، وفي الرواية الصيادين وكافة عمال المرفأ، بينما تعمل عناصر الشرطة على خدمة المحتلين الفرنسيين، ومُلاحقة المناضلين الوطنيين، ويطمح الأغنياء وهم يتقنعون بالشعارات الوطنية إلى تزعُّم حركة التحرر الوطني، واستخدام هذه الحركة من أجل تنمية مصالحهم، واستلام السُّلطة بعد الاستقلال.

تجري أحداث الرواية في مدينة اللاذقية، التي يعرفها المؤلف معرفةً جيدة، وخاصةً أن المدينة ليست كبيرة من حيثُ المساحة وعدد السُّكان في تِلك الآونة.

وتحتل هذه المدينة موقعاً جُغرافياً هامَّاً على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

ولهذا يعتبر مرفأ اللاذقية من أهم مرافئ القطر العربي السوري، ويعتبر من أهم المصادر الاقتصادية في القطر.

وتعتبر اللاذقية بمثابة البوابة ليس للقطر العربي السوري فحسب، بل بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط ككل، ولقد حافظت هذه المدينة على مَرِّ العصور على عاداتها وتقاليدها العربية القديمة، وعلى النُّظم الاجتماعية، التي ورثتها عن الأجيال السَّابقة؛ كل السُّلطة في البلد تعود للأغنياء الذين كانوا منذ القدم وحتى تاريخ كتابة الرواية يتنازعون فيما بينهم على الأملاك والمناصب الاجتماعية، ولقد أصبح من المعروف أن المدينة مُقسَّمة إلى مَناطق نفوذ للعائلات الكبيرة، أو لأولئك المدعومين من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي، وكان شيوخ العائلات هُم القضاة، وهم الذين يتصرفون بالأرض والأملاك كما يشاؤون، وكان هؤلاء (الشيوخ والزعماء والمتزعمين)، يشترون بعض الأشخاص من ذوي النفوس الرَّخيصة ويسخرونهم لتنفيذ مآربهم، والدِّفاعِ عن مشاريعهم ومصالحهم، ويعاقبون كل من يقف في طريقهم: «مصير كلِّ بحارٍ وحمَّالٍ في الميناء يرتبط ارتباطاً كبيراً بأبي رشيد، وعلى الإنسان أن ينفذ ما يطلبهُ منه،

ولو غضب على أحد ما، حلَّت بهِ النكبة وطُرد من عمله[131]». وغالباً ما كان يدقُّ "أبو رشيد" على صدرهِ ويقول: «في الميناء يوجد مسؤول واحد، ولا يجوز أن يكونا مسؤلان، والمسؤول هو أنا، أنا وحدي[132]».

وفي اللاذقية ذاتها يعيش بطل رواية «الشراع والعاصفة» الرئيسي الطروسي الذي عانى الكثير من الصعاب في حياته، فلقد عمل حمَّالاً في الميناء، وصياداً وبحاراً، ولكنَّ مصيرهُ اضطرهُ إلى أن يفتح على صخرةٍ من صخور الشَّاطئ بما يسمى (مقهى) بعد أن فقد مَركبه «المنصورة» على أثر عاصفة حطمته وأغرقته في أعماق البحر.

واعتقد الطروسي أنَّ الحظ قد أسعفه في افتتاح «مقهاه لأن هذه الأرض التي اختارها ـ حسب ما يعرف ـ لا تعود لأحدٍ كان، وكان سعيداً لأنه لم يبتعد عن البحر الذي أحبه وعشقه، وأراد من عمله هذا أن يكون على صلةٍ دائمةٍ بالبحر طيلة الوقت، وحتى تسنح له الظروف أن يعود فيمتطيه من جديد.

وحسب اعتقاد الطروسي أنه لم يُخلق ليكون صاحب مقهى، ويعبر عن هذا لصديقه أبي محمد إذ يقول: «يا عم أبو محمد، لا أستطيع أن أكون كسائر أصحاب المقاهي، أقضي عمري في مراضاة الناس... أنا لم أُخلَق لهذه المهنة[133]».

ومنذ بداية الرواية يصور الكاتب حنا مينه بطل روايته الطروسي تصويراً إيجابياً، فهو إنسان شجاع مكافح مستقل بشخصيته، واثق بنفسه ثقةً كبيرة، وفي مقهاه كان يفرح لقدوم البعض، ويرحِّبُ بهم ترحيباً كبيراً، ويستقبل الذين يحبهم بالأحضان، مُصافحاً إياهم بحرارة، وكان على استعدادٍ دائمٍ لأن يقدم إليهم المساعدة، التي يرغبون بها، وبينما كان شديد الحِقدِ على الذين يكرههم، وخاصةً لأولئك المنافقين والأزلام، ولكنَّهُ كان مُجبراً على استقبال

---

[131] حنا مينه «الشراع والعاصفة» موسكو 1971، ص179، (باللغة الروسية).

[132] نفس المرجع السابق ص249.

[133] حنا مينه، «الشراع والعاصفة»، ص14 (باللغة الروسية).

obeikandl.com

هؤلاء وتقديم الخدمات لهم، وبغضِّ النظر عن هذه الظروف، التي يعيشها وُيخالط منها شتى أنواع البَشر، ولم يفقد في يومٍ من الأيام ثقتهُ بنفسهِ، وحبِّهِ للكرامة والحريَّة وكان دائماً يُحب التضحية من أجل الآخرين.

وغالباً ما كان الطروسي يستقبل في «مقهاه» بسطاء الناس العاملين في الميناء فيحدثونه عن عملهم القاسي، وظروف معيشتهم التي لا تُطاق، والتفاوت الاجتماعي والاضطهاد الذي يعانون منه في ظِلِّ سيطرة (صاحب) الميناء أبو رشيد.

وأمام هذه الأوضاع لم يقدِر الطروسي أن يبقى بعيداً عن ساحة الصراع، فأخذ يُشارك في الحياة العملية بكلِّ ما فيها من تعقيداتٍ كثيرةٍ وأخذ بالتدريج يُشارك في الحياة السياسية للبلد، ويهتم بالسياسة العالمية، ولقد استفاد الطروسي من أحاديث الزوار، التي علَّقَ أكثرها في ذاكرته فاستخلص منها الكثير من الفوائد الذاتية، فأخذ يفكِّر في الحلولِ للقضايا والمعضلات الاجتماعية (قد لام الطروسي نفسه لأنه يتدخل، ثم وجد أنه لا يستطيع أن يسكت، إضافة إلى أنَّهُ، في بعض القضايا، يُجرُّ إلى التدخل جَرَّاً، فليس ضميرهُ ولا لسانهُ بقادرين على اصطناع اللامبالاة حِيالَ ما يُرى ويُسمع، إذ كان يقول: «إذا سافر الإنسان أراح واستراح، إنه يبتعد عن الميناء وجوِّهِ، وينسى أن في بلدهِ يقعُ هذا كله، ولكنني لا أستطيع السفر، ولا أستطيع أن أسمع وأسكت، البحارة أوغاد، يأكل بعضهم بعضاً كالسمك، يقتتلون في سبيل غيرهم، وأبو رشيد هو الحاكم بأمره» لا يحق لسواه تشغيل أحد من العمال، هو الذي يفرغ السفن والمراكب، وهو الذي يحملها، فيقبض أجوراً باهظةً ويدفع أجوراً تافهةً، أُفْ، ما هذا الظلم يا ناس، وكيف السَّبيل إلى الخلاص؟... الحمد لله أني لست من العاملين في الميناء، وإلا لقَتلتُ أو قُتلت، سأظلُّ في

المقهى، يكفيني تعب المقهى، لن أتدخل فيما يجري خارجه[134].

ولكن عدم الوضوح السياسي والفكري بالنسبة للطروسي كان يتطلب متابعة التفكير في الآراء والمقولات من حوله، والمقارنة بينها حتى يتوصَّل إلى الحقيقة، ويصف الكاتب هذا الموقف عند بطله الطروسي كما يلي: «ولا بأس، كذلك، من سماع أقوال الزَّبائن، بل لا بُدَّ من سماعهم حيناً بعد حين، فعندما تثور المناقشات في المقهى، لا يستطيع أن يمنعها، ولا يستطيع، كذلك أن يحتملها، فيخرج ويلجأ إلى البحر، ولكن بعض العبارات تستوقفه أحياناً، وتجعله يُفكِّرُ بها على نحوٍ ما، ثُمَّ يفكر بأصحابها على نحوٍ ما أيضاً، ويتساءل في ذات نفسهِ (لماذا يتحمسون للسياسة كُلِّ هذه الحماسة؟)، ولماذا لا يتحمس الأُستاذ كامل، معلم المدرسة، لمدرسته كما يتحمس لآرائه؟ وأبو حميد، لماذا يتحمس لإذاعة برلين بأكثر مما يتحمس لمهنته؟ ولماذا يكره أبو حميد الأستاذ كامل؟ ولماذا يكره هذا الأخير ألمانيا؟ وأنا؟ مع من أنا؟ أنا لست مع أحد، ولست ضد أحد، ولكن إذاعة برلين تعجبني، وحديث الأستاذ كامل يقنعني، وبعض الأحاديث الأُخرى تسليني، بل تجذبني، لقد اعتدت سماع الزَّبائن، وألِفتَ الجو، وأبو رشيد يُريد تَعكير هذا الجو، يُريد تهجيري، ولكنَّهُ لن يفلح[135]».

وهذا التفكير والتحليل للوضع السياسي، وشتى الآراء المطروحة تؤدي بالبطل إلى اختيار المنطق العلمي الصحيح وتنتصر فيه قوة المنطق على العاطفة أو الرَّغبات العابرة، وتُصبح ثقته بالأستاذ كامل ثقةً كاملة، وتتطور في الرواية بسرعة، وتُصبح الألوان أكثر تشابكاً من جهةٍ ووضوحاً من جهةٍ أُخرى، إذ تتضح أُطر الصِّراع الدَّائر بين الطروسي كممثل للطبقة العاملة، وبين القوى الظالمة والمستغِلَّة في مدينة اللاذقية، ويصبح الطروسي - الإنسان البسيط الذي

---

[134] نفس المرجع السابق ص34.

[135] حنا مينه، الشراع والعاصفة، الطبعة العربية الأولى ص35.

obeikandi.com

يتمتع بأجمل الصِّفات الإنسانية موضوع اهتمام الكثير من العمال، ويحوز على الاحترام من جانبهم، ويتجلى هذا في لحظات الصِّراع الطبقي الحاد دون عودةٍ إلى الوراء.

ولقد حدَّدَ الكاتب موقف البطل منذ بداية الرواية تقريباً بالنسبة للتردد، فهو يكره العودة للوراء، وهو مُصِرٌّ على تمزيقِ أية قوة سوداء تقف في طريقهِ: «إن استقرار الطروسي على هذه الصخور ما لبث أن اضطرب: كان، في قرارة نفسهِ، ينطوي على شعور إنسان اضطر إلى التوقف بين مرحلتين من سفرةٍ واحدةٍ، لم يعد يستطيع مُتابعة السَّفر، ولا هو ينوي العودة من حيثُ أتى، ولديه من الثِّقة بالوصول ما يجعله يُقيمُ دهراً بانتظار الرَّحيل، وخِلالَ ذلك يسند ظهره ويستريح أو يعمل وهو كاره، أو يفكر بما لا يدري إلا هو والشَّيطان، ويحسُّ إحساساً مُرهفاً بالغُربة، ويستشعرُ القُدرة على تمزيق من يزيدها سواداً في عينيه[136]».

ولكن كيف كان للطروسي أن يُغيِّر هذا الواقع المر؟ وهذه الفِكرة بالذات لم تسمح له أن يستمر أو يستريح، ففي جوهر هذه الفِكرة الحائرة كان يتجسد عُنصرُ التحدي، وهذه الفكرة كانت تُذكِّرُهُ دائماً بعدم وجود العدالة الإنسانية، وانتشار الظلم والحِرمان، ويرى القارئ للرواية كيف تتسع معارك الطروسي ويتكامل وعيهُ الاجتماعي، ويتضح إدراكهُ السِّياسي، ولن يستغرب القارئ نهائياً عندما يرى الطروسي، الذي كان يتأرجح بين شتى الآراء السياسيَّة قد حدد موقفه النهائي، وانخرط في معمعان النضال من أجل حقوقه وحقوق العمال وكافة المظلومين.

ومن خلال مشهد الصِّدام الذي وقع بين الطروسي وصالح برو، الذي كان يحسب نفسه بحاراً، ولكنَّهُ في واقع الأمر لا يخصُّ البحارين، لا من قريب ولا

[136] نفس المرجع السابق، ص15.

من بعيد، بل كان يعيش على الدراهم التي يستلمها من أبي رشيد لقاء «خدماته الخاصة» في الميناء، ولقد دفعه أبو رشيد لإخضاع الطروسي، أو إبعاده عن الميناء، وكان أبو رشيد وصالح برو يعرفان أن الطروسي لن يبتعد عن الميناء، وسيدافع عن حقهِ حتى الموت ويصف الكاتب اللقاء بين الطروسي وخصمه على الشَّكل التالي: «اندفع خارج المقهى بضراوةٍ استقرت كل أعصابه للقتال، وحين فعل ذلك لم يفكر في شيءٍ من هذا، الذي تسبب في تحرش صالح به، تحوَّلت أفكاره إلى قوةٍ دافعةٍ في ذاتهِ دون أن تُصبح تصورات وتحسبات في رأسه، وكان هذا شأنه فيما مَضى، وهو كذلك اليوم... إنَّهُ يصبر ويصبر ثم ينفذ صبرهُ، فينفجر، وعندئذٍ يُقدم بغير تراجع[137]».

بدأ الطروسي بمساعدة المعلم كامل في توحيد عمال الميناء وتكوين المنظمة النقابية التي تدافع عن حقوقهم.

وذات مرَّةٍ امتدح كامل الطروسي فأجابه: «إنني لا أقوم بهذا مُقابل أن تقول لي شُكراً، فهذا واجبي، ومهما كان من أمر، فإنني بحار، ولي علاقةٌ متينةٌ مع الميناء، ولا تنسى أنني أُحبذ أن أكون على علم بالموضوع، ولهذا أرجوك أن تحيطني بكافة الأمور، وحدثني ماذا يجري في العالم، وعن ماذا يتحدثون وماذا يريدون العمل؟[138]».

ففي إحدى جلسات الطروسي مع المعلم كامل، قام الأخير بسردِ ما سمعه من الحمالين في الميناء، وشرح للطروسي أهمية تنظيم اتحاد نقابي لعمال الميناء، وشرح أبعاد الأمر وضرورتهِ، وما يجب عملهُ من أجل القيام بهذا العمل الهام، وأهمية لقائهِ مع العُمال، وإجراء الاجتماعات والحوار حول عِدَّةٍ قضايا تهمُّ جميع العاملين في الميناء، ولقد نقل المعلم كامل للطروسي أخبار الصدامات التي وقعت بين العمال من جهة، وأبو رشيد من جهةٍ أخرى، وعبَّرَ عن ثقته بهؤلاء

---

[137] نفس المرجع السابق، ص16 ــ 17.

[138] حنا مينه «الشراع والعاصفة» الطبعة الروسية ص111.

obeikandl.com

العمال الشجعان الذين صمدوا أمام ضغط أبي رشيد، وقدَّمَ كامل العديد من الأمثلة على ظلم واضطهاد أبي رشيد للعمال، سمع الطروسي حتى النهاية وكان بين الفينة والأُخرى يهزُّ رأسهُ موافقاً أحياناً، ويضيف كلمة أو بضع كلمات ليعلّق على الموضوع، الذي يتحدث عنهُ كامل، أو يغنيه ببعض الحقائق الأخرى، وهكذا يصور الكاتب أحد اللقاءات بين كامل والطروسي، وهما يتناقشان حول السِّياسة:

ـ شِفت؟ أنت أيضاً تتحمس، فلا تستغرب حماسة الناس بعد اليوم.

ـ الناس يتحمسون للسياسة، وأنا أتحمَّسُ للميناء.

ـ وما الفَرق؟ كل رأي هو سياسة، والأشياء مترابطة، فلو لم يناضل الشَّعب ما تحقق الاستقلال، ولولا الاستقلال ما استطاع الناس المطالبة بحقوقهم والحصول عليها[139].

ومن خلال شخصية الطروسي يبين المؤلف حنا مينه كيف اكتسب الإنسان العامل الواعي الثوري الوطني بالتدريج، ومن خلال شخصية البطل يبين الكاتب الوعي لدى الجماهير الشعبية، ومن خلال أفكار وتعابير المعلم كامل يعكس المؤلف أفكارهُ التقدميَّة بالذات، ويكشف عن الكثير من الحلول للمشاكل الاجتماعية والوطنية والسياسية التي يدور النِّقاش حولها.

وها هو يبين كيف يصل الوعي بالمواطن العربي إلى إدراك أبعاد العلاقة بين الوطنية وقضايا الإنسانية جمعاء، إذ تتضح هذه العلاقة من أجوبة المعلم كامل عن استفسارات الطروسي:

ـ هذا صحيح، ولا انتقص من حماسة أحد في سبيل الوطن، ولا أتأخر أنا نفسي، لكنني استغرب حماسة الناس لألمانيا وروسيا ومشاكل العالم.

ـ مشاكل العالم تؤثر في مشاكلنا يا أبو زِهدي، لو انتصرت ألمانيا لأصبحنا في

---

[139] نفس المرجع السابق ـــ ص156.

مرتبة العبيد، النازية كيف أشرحها؟ طاعون، أتعرف الطاعون؟ لقد انهزمت ألمانيا الآن، ولكنَّ الإنكليز والفرنسيين يلعبون علينا، يريدون سلبنا الاستقلال بكُلِّ وقاحة، ولكنهم عاجزون، عاجزون تماماً، الدنيا تغيرت وأصبح لنا صديق قوي[140].

وفي نهاية الرواية يعود الطروسي إلى البحر مُتصارعاً مع المخاطر والعواصف البحرية، ويُصبح واضحاً للجميع بأن الطروسي الواعي المجرب قد ربط مصيره بمصير وأحلام أبناء طبقته من العمال، وأخذ على عاتقه مسألة متابعة النضال من أجل بناء المجتمع الجديد الذي سيكون فيه الشَّعب سيد نفسهِ، وينتهي دور كل من يحاول أن يستغل أو يضطهد أو يقهر العمال أمثال (أبو رشيد)، وهذه الطريق بالطبع صعبة وشائكة، ولا يقدر على اجتيازها غير الأبطال الشُّجعان المسلحين بالأفكار الإنسانية الرائعة، ويبقى البعض على الشَّاطئ لأنَّهم يخافون الأمواج والصراع معها، وبكلمة أن الكاتب قد رمزَ بهذا إلى أولئك الذين يخافون النضال السياسي، ويخشون التضحيات والمصاعب.

ومن الذين بقوا على الشاطئ كان المعلم كامل، ليس لأنَّهُ يخاف من البحر والأمواج، بل لأن مكانه الحقيقي هُنا: فهنا سوف يعمل كل ما بوسعه من أجل المستقبل الوضاء لشعبه، يفترق الطروسي والمعلم كامل، ويذهب كل منهما في طريقه، ولكنهما يشعران، في هذهِ الأثناء بأنهما يرتبطان ببعضهما بشدَّةٍ، وهذا الخيط الذي يربط فيما بينهما يصبح أمتن وأمتن مع مرور الزَّمن وبعد المسافة فيما بينهما.

ومن الكُتَّاب التقدميين الذين أنتجوا في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين كان حنا مينه أكثرهم دقة في الوصف الواقعي، وأقربهم من الحياة العملية اليومية وخاصةً أنه أخذ على عاتقه عكس واقع الشَّعب السوري في هذه

---

[140] حنا مينه ــ الشراع والعاصفة، الطبعة الأولى ص156 ــ 157.

الفترة من تطوره إذ أنه كان قادراً على القيام بنشاطٍ عفوي غير منظم فقط.

ولقد تمكَّن مينه ـ كما فعل مكسيم غوركي من قبله ـ من الكشف عن الجديد في التطور الاجتماعي الشعبي، وعكس عن طريق بعض الأبطال، الممثلين للجماهير، الكثير من القضايا الاجتماعية والإنسانية وخاصةً لأن هؤلاء الأبطال هم من النوعية التي تتحسس أدقَّ القضايا، ومن ذوي الإرادة الصلبة والذين لا يطيقون الظلم والاستغلال والاضطهاد، وعلى استعداد للذود عن حريتهم وكرامتهم، ولكنَّ الأبطال في نتاجات حنا مينه لا يعرفون الطريق الصحيحة للنضال ضد هذه الظروف القاسية، ولذلك يأخذ طابع النضال عندهم الشَّكل العفوي، ويعبرون عن عدم رضاهم عفوياً، ولكنهم بنفس الوقت لا يتوقفون عند هذا ويعملون لتطوير أنفسهم وتسلحهم بالفكر الاشتراكي من أجل القيام بالثورة، وتصعيد النضال التحرري ضد الاستغلال، والاحتلال، وترسيخ الاعتقاد بحتمية اضمحلال وزوال النظام البورجوازي القائم على التفاوت الطبقي، كل هذا وغيرهُ يأخذ أبعاده في نتاجات حنا مينه عن الطبقة العاملة.

فإذا كان مكسيم غوركي قد أبرز الطبقة العاملة كقوة أساسية في المجتمع، وعليها تقع المهمة الأساسية في تطوير المجتمع وتغيير النظام البورجوازي القائم، ويعكسها كطبقة واعية تُعرِّف المهام الملقاة على عاتقها كما في رواية «الأم»، فإن حنا مينه، يعكس الإنسان في مرحلة تطوره النضالي الأول، وهو يكره الطبقة المستغلة من كل قلبه، ولكنه لم يصبح بعد ثائراً مُحترفاً، مؤمناً إيماناً كلياً بقضية الثورة، وعلى أية حال، فإنَّ تقدم هذا الإنسان العامل هو خطوةً هامةً نحو الأمام، وفي هذا بالذات تنحصر أهمية نتاجات حنا مينه الذي تمكن من عكس مرحلة النهضة الثورية، واستيقاظ الوعي القومي والطبقي للشَّعب العربي.

إن وصف الفئة البرجوازية عند الكتاب السوريين التقدميين أمثال حنا مينه،

obeikandi.com

سعيد حورانية، مواهب الكيالي، ليان ديراني وغيرهم، يشبه إلى حدٍ بعيد الوصف الدقيق، الذي قدَّمهُ مكسيم غوركي في وصفه لوحشية وقساوة وعدم إنسانية (ملاكي الحياة) في تعاملهم مع الأناس الفقراء الواقعيين تحت استغلالهم البشع، ولقد اهتم الكُتَّاب التقدميون بالإنسان البسيط، وصوروا مصيره في المجتمع البرجوازي الرَّأسمالي.

وما طموح حنا مينه لعكس النضال المرير للشعب السوري من أجل التحولات الاجتماعية، ومحاولته لرسم صورة البطل السِّياسي، المناضل ضِدَّ أُسس المجتمع البورجوازي الاستغلالي، وتصوير التعاطف مع الإنسان البسيط، والثقة به إلى أبعد الحدود، كل هذا وغيره يقرب حنا مينه من مكسيم غوركي.

وعلى غِرار نتاج مكسيم غوركي «حكايا عن إيطاليا» يعكس حنا مينا في صورة شاعرية حياة الشَّعب، وروحه وعاداته وتقاليده، ويبرز (المدخرات الذهبية) في طباع وأعمال الناس البسطاء وكافة الكادحين، وهؤلاء النَّاس بالذات هم حملة الفضيلة والأخلاق الحسنة، وهم متضامنون مع بعضهم البعض، بروحٍ إنسانيةٍ خلاقة، ويتميزون بشعورهم الوطني الجيَّاش، وتحملهم المسؤولية أمام مصير الوطن، وما رآه مكسيم غوركي في الشَّعب الإيطالي، نجدهُ ينطبق كلياً مع ما اكتشفه حنا مينه فيما بعد في أعماق الشَّعب السوري.

في رواية «الشراع والعاصفة» نجد أن التضامن بين العمال هو من أهم الميزات التي تتسم بها الطبقة العاملة، ولقد اتضح هذا من خلال وقوف العمال إلى جانب رفيقهم العامل، الذي هوى من التعب، وسقط تحت عبء الحمل الثقيل، إذ أسرع الجميع لمساعدته، حتى أن أحدهم قد خاطر بحياته من أجل إنقاذه، ووقف الجميع إلى جانبه عندما حاول المشرف طرده من العُمل.

وتتضح قضية التضامن بين العمال والحمَّالين في الميناء عندما علم أهالي اللاذقية بأنَّ العامل جميل ما زال على قيد الحياة، فعمَّت الفرحة جميع أنحاء اللاذقية، وخاصةً في منطقة الميناء، حيثُ يعرف العمال رفيقهم معرفةً جيدةً،

وعاشوا هذه الفرحة كأسرة واحدة.

أما أحداث الحرب العالمية الثانية فقد غيَّرت الكثير من موازين القوى العالمية، ومع التطور العاصف الذي حدث في المجال العالمي، أخذت بعض النظريات، تُغيِّر طُرق تفكير بعض المؤدلجين السياسيين والاقتصاديين، ولعب تكوُّن المعسكر الاشتراكي دوراً هاماً في كَبح جِماح الاستعمار بنوعيه القديم والحديث، وشكَّلَ هذا المعسكر قوَّةَ دعمٍ هامَّةٍ لحركات التحرر الوطني التي أخذت تشقُّ الطريق للوصول إلى الاستقلال الكامل، ومن جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية، وتأمين الحقوق المشروعة للكثير من الشُّعوب التي سلبت منها خلال فترة طويلة.

ومع الزَّمن وبالتدريج أخذت أصوات الشُّعوب المتحررة تهدر أكثر وأكثر، وأخذت تعلن عن حقها في تقرير مصيرها حسبما تشاء إرادتها، والممثل الحقيقي للفكر الوطني الإنساني في رواية «الشراع والعاصفة» هو المعلِّم كامل الذي ربط مصيره وإلى الأبد مع نضال الشَّعب العربي السوري ضد الاضطهاد وكافة أنواع الاستعمار والفاشية، فهو يكره الأعداء كُرهاً لا حدَّ لهُ، ويدرك إدراكاً واعياً بأن النضال ضدهم من أهم مُقومات الحياة بعزةٍ وكرامةٍ، وكامل يعرف بشكلٍ جيدٍ أن التضامن بين كافة فصائل حركة التحرر الوطني أمر ضروري وهام لتحقيق النصر، ومن دون التضامن وتراص الصُّفوف والتعاون المشترك من غير الممكن أن تنتصر القضية، وفي كُلِّ مرَّةٍ كان يتحدث كامل عن نفسه، كان يربط بين معاناتهِ ومعاناةِ الآخرين، ويخلص إلى نتيجةٍ مفادها أن مصير أبناء الوطن، مصير واحد، وهم جميعاً مسؤولون أمام مسألة الدِّفاع عن المصالح الوطنية والإنسانية عامة، وهو يشعر عندما يُعاني من أية مسألة خاصة، معاناة صعبة وقاسية بأنَّ هُناك الألوف والملايين من البشر يعانون من مثل هذه المصاعب الناجمة عن غياب العدالة، ويقصد حنا مينه في المعاناة ما يلي: «المعاناة أن نعيش الحياة بكل ما فيها: أن نهجر الأبراج العاجية وننزل إلى الأسواق كما قال عمر

فاخوري، لنكون أدباء من لحم ودم لا من حبرٍ وورق، لنفهم مشاكل الإنسان وقضاياه، ثم، وهذا هو الأهم، لنرصد العصر ونفهم روحه وخطه، ولنكون ضمير هذا العصر كما ينبغي لنا أن نكون[141]».

. الشَّمس في يوم غائم:

في رواية «الشَّمس في يوم غائم» يكشف حنا مينه عن الصِّراع الطبقي داخل الأسرة الواحدة، فالأب في الأسرة مساعد نشيط لقوى الاحتلال، إذ يقوم على خدمة مصالح الاستعمار الفرنسي، ويُساهم في قَمع الانتفاضات الشَّعبية ضد الاحتلال، ويعمل على إخماد حركات التحرر الوطنية، وعندما يعلم الابن بهذا يصبح وبالتدريج يكنُّ شعور الحقد والكراهية لأبيه، ويصطدم معه عدَّةَ مرَّاتٍ، تؤدي هذه الصدامات في نهاية المطاف إلى أن يترك الشاب بيت أبيه، ويتجوَّل في أحياء الفُقراء ويصادق الناس البسطاء، ويتعرف إلى الشَّباب التقدميين منهم، وينطلق ليُساهم في الانتفاضات الشَّعبية ضد قوى الاحتلال وأزلامها المأجورين أمثال أبيه.

إن هذا الصراع الداخلي ضمن أُطر الأسرة الواحدة يُذكِّرنا بنتاج مكسيم غوركي «عمل أسرة أرتامونوف»، إذ أن الحفيد إيليا يُخرج من بيت أبيه، ويرفض التعايش مع مُثل وأخلاق هذه الأسرة البورجوازية التي تعاقبت أجيالها على استغلال جهد العُمال، وينضمُّ إيليا إلى مُعسكر آخر مُعادٍ لأُسرتهِ.

مُعسكر الطبقة العاملة التي تخوض صراعاً تناحرياً مع البرجوازية ويقف إيليا ضِدَّ أُسرتهِ وطبقتها الرَّأسمالية، لأنَّهُ يُمثل الجيل الجديد الذي يتشبَّع الأفكار الثورية الإنسانية بكل ما فيها من قيم خلاقة، وفي الظروف التاريخية الجديدة يسخِّر إيليا كل طاقتهِ وملاكاته من أجل الحرية والكرامة ليس بالنسبة له شخصياً، بل بالنسبة للغالبية العُظمى من أبناء الشَّعب الروسي، وهذه الميزات

---

[141] حنا مينه، «ناظم حكمت وقضايا أدبية وفكرية»، ص302.

التي اتسم بها إيليا ارتامونوف، كان لها أن تُدفن وتُخنق لو لم يتمكن إيليا من الخروج على مثل وتقاليد أسرته، وكان بإمكانهِ أن يُحافظ على مُثله الإنسانية وفكرهِ المُتفتح بأن يربط مصيره بمصير الشَّعب عامةً، ومصير العمال المناضلين ضد استغلال وجشع أسرة أرتامونوف التي ينتمي إليها من حيثُ السلالة الدَّموية، ويتناقض معها فكرياً وإنسانياً.

ومن خِلال استعراض العملين: «الشَّمس في يومٍ غائم»، و«عمل أسرة أرتامونوف» نُلاحظ أن المدرسة الواقعية في الأدبين السوفييتي والعربي قد تطورت ـ بغضِّ النظر عن الفارق الزَّمني ـ تطوراً متناسباً ومتشابهاً، ويوحِّد فيما بين الأدبين الكثير من الميزات المشتركة، والمواضيع المتقاربة.

ويمتاز حنا مينه عن غيرهِ من الكُتَّاب، كونه قد تمركز في العديد من نتاجاته لوصف وتجسيد تلك الانطباعات الرَّاسخة في مُخيلته منذ الصِّغر، وهذا ما نجده في رواية «بقايا صور» التي تعكس إلى حدٍ بعيد سيرة حياة الكاتب، وتشبه نسبياً ـ ليس من حيث الموضوع فحسب، بل من حيث تسلسل الأحداث، الجزء الأول من ثُلاثية مكسيم غوركي التي صوَّر فيها حياته وتشرده في ظروف روسيا القيصرية القاسية، وأشار الكاتب السُّوري والناقد الأدبي سعيد حورانية في عرض الكلام عن تأثير مكسيم غوركي على نتاج السوريين التقدميين إذ قال: «من بين الكتاب السوريين الذين تأثروا بأدب مكسيم غوركي كان حنا مينه، ويتضح هذا في الكثير من نتاجاته، وخاصة في روايته «بقايا صور» التي تعكس مرحلة الطفولة من حياته.

وفي عام 1978 صدرَ الجزء الثاني من سيرة حياته بعنوان «المستنقع»، وكان الموضوع الأساسي في هذا الجزء، كما في الجزء الأول هو موضوع تكوُّن الإنسان وتطوره ضِمن الظروف المحيطة، ومن خِلال العلاقة المتبادلة بين الفرد والمحيط يعكس الكاتب العلاقات الاجتماعية القائمة في مُنتصف القرن العشرين، هذا ولقد أخذ مينه على عاتقه مسألة عكس مراحل تربية الإنسان

obeikandi.com

وتطورهُ وطموحاتهُ إلى اكتساب المعرفة، وإدراك الحقيقة، وأن يصل لدرجة من المعرفة يكون قادراً فيها على التعبير عن آرائه.

إن ثلاثية مكسيم غوركي، ونتاجات حنا مينه التي تعكس سيرة حياته متقاربة فيما بينها من حيث أنَّها تصبُّ في مُحيط المدرسة الواقعية الاشتراكية، وتعكس هذه النتاجات ـ بغضِّ النظر عن اختلاف المراحل الزَّمنية ـ تاريخ جيلين من حياة الشَّعبين الروسي والعربي، ومن خِلال تصوير هاتين المرحلتين المُتتابعتين زمنياً ـ أولاً في المجتمع الرُّوسي، وثانياً في المجتمع العربي ـ نجد أنَّ كُلاً من الكاتبين (غوركي وحنا مينه) قد ركَّزَ على عكس الطبقات المتناحرة في المجتمع وعلاقتهم مع بعضهم البعض، ومنذ الصفحات الأولى في نتاجات غوركي وحنا مينه يدرك القارئ موقعهما الإنساني المعادي للفئات والطبقات المستغِلَّة (بكسر الغين)، وانتماؤهما المبدئي إلى قضية الشَّعب العامل.

وإذا دققنا في شخصيتي الكسي بيشكوف (مكسيم غوركي) الشَّاب، وبين حنا مينه أيام طفولته، كما صورها لنا في روايتي «بقايا صور» و«المستنقع» لتضحَ لنا الكثير من التَّشابه في مصيري الكاتبين، كما يتضحُ لنا أنه من خلال مصيرهما، وتكون شخصيتهما، كان هناك تطور مماثل في حياة الشَّعبين الروسي والعربي، وكان كل من الكاتبين صورةً مُصغرةً عن تطور شعبهِ خلال جيله، مع الاختلاف في الفئات الاجتماعية في روسيا وسوريا خلال فترة (1880 ـ 1900) في روسيا، و(1920 ـ 1940) في سوريا، ولكن الكاتبان على الرَّغم من التباعد الزَّمني فيما بينهما قد خَصصا القسط الأساسي من نشاطهما لعكس حياة طبقتي العمال والفلاحين.

والمسألة الأساسيَّة والمركزيَّة في ثُلاثية سيرة حياة غوركي كانت تكوُّن الوعي الثوري، والشَّخصية الثورية الفعَّالة بينما لم تكن هذه المسألة ـ حسب الظروف التاريخية، التي مرت على سورية ـ مسألة أساسية مركزيَّة في وصف شخصية البطل الأساسي لنتاج حنا مينه «بقايا صور»، ولكن في نتاجاته التي تعكس

سيرة حياته تمكّنَ المؤلف من التنبؤ باقتراب التحول الاجتماعي الهام في البلد.

وفي النتاج الأول (بقايا صور) يكشف المؤلف حنا مينه عن أُطر عملية التحرر الفكري التدريجي في وعي الشّعب السوري النبيه من قيود التخلّف التي كبّلتهُ قُروناً طويلة من الزّمن ويكشف المؤلف عن الصِّراع الحاد الذي يقوم على أُسس النِّزاع على الملكية الخاصة، وعلى غِرار مكسيم غوركي الذي عكس في ثُلاثيَّةِ سيرة حياته قصص «الطفولة»، «بين النّاس»، «جامعاتي» طفولته البائسة التي لم يرى فيها يوماً سعيداً في بيت كاشيرين، نجد أن الكاتب حنا مينه يصف سنوات طفولته التي عاش فيه مُعانياً من الجوع والأمراض والحرمان مع أسرته الفقيرة المعدومة، كغيرها من آلاف الأُسر في سورية في مَطلع القرن العشرين، إذ أن التفاوت الطبقي كان كبيراً للغاية، فجماعة قليلة من الناس كانوا يعيشون الأفراح، ويتصرفون بأقدارِ ومصائرِ آلافِ الأُسر التي تُعاني من المجاعة المُميتة، ولقد عاش حنا مينه بنفسهِ، منذ سنوات حياتهِ الأولى هذه الحياة التي لا تُطاق، وشعر بنفسهِ، وعانى بذاتهِ من تلك الفوارق الاجتماعية الكبيرة، التي سادت خِلال قرونٍ طويلةٍ بين هاتين الطبقتين المتناحرتين ـ الأغنياء والفقراء.

فإذا عَكسَ مكسيم غوركي الجد كاشيرين كإنسانٍ شريرٍ قاسٍ لا تعرف الرحمة إلى قلبهِ طريقاً، وكان يضطهد ويستغل كل من حولهُ، فإنَّ حنا مينه، حاول أن يرسم صورة أبيه كإنسانٍ ضعيفِ الإرادة، فَقَدَ زِمام المبادرة أمام المصاعب الكثيرة، التي عانى منها في حياتهِ، وأدار ظهره لهذهِ المصاعب، هارباً منها إلى كأسٍ من الخمرة تنسيه همومهُ وعذابهُ، وهو حسب وجهة نظر الكاتب ـ ضحيةً من ضحايا الظلم الاجتماعي الذي أحنى ظهره وأخمد عزيمتهُ، ووضع أمام وجهه لوحة سوداء قاتمة، كان يصعب على هذا الرَّجل أن يرى فيها شرارةَ أمل، ولقد ناءَ كَتِف الوالد في حمل هذه المصاعب، بدءاً من الرَّحيل من لواء اسكندرون بعد التآمر الفرنسي -التركي لسلب هذا اللواء من سوريا

وضمِّهِ لتركيا، ومروراً بالإقطاعيين الظالمين إلى التشرد والمرض والحرمان والبؤس والمصائب... ولكنَّ الكاتب كان يضع أمام الوالد فكرةَ الرَّحيل إلى مكانٍ جديدٍ علَّهُ يتخلَّص من البؤس، وها هو يقول لزوجته: «أعرف، أعرف أنَّكِ لا تذكريني... دعيني... أنتِ لا تعرفين ما قاسيت... الرَّجلُ لا يقول لزوجته كل شيء.. المهم أن المبارك أعطى، والأيام، كالريح الطيبة، صارت مؤاتية، ونحن سنرحل، ولو ملؤا يدي بالذهب سأرحل... دنيا اللّه واسعة[142]».

وفي كُلِّ مكانٍ كان يُمارس الوالد مهنةً جديدةً لكسب بعض القروش، ولم ينجح بأية مهنةٍ كانت حتى ببيع الحلويات، وتصليح الأحذية، ويضطر الوالد والوالدة إلى تشغيل البنت الأخيرة عندهما ليحصلا على بعض الأجر لسدِّ رمقِ عيشهم: (كان الوالد يغيب بضعة شهورٍ مُرَّةٍ، يفعل ذلك حين يفلس فلا يبقى معه ثمن رغيف أو عُلبة تبغ، يرحل إلى المدينة ليستلف من أجرة أختنا الخادمة. وكانت السِّلفة قد تضاءلت عندما لم يبق لنا إلا أُختً واحدةً تعمل، ومن هذه السِّلفة كان يدفع أجرة الذَّهاب والإياب ونفقات الإقامة في المدينة.. الإقامة التي تطول أياماً، ريثما يتوصل، بإلحاحه، إلى إقناع سيد الأُخت بأننا جياع، وبحاجةٍ ماسَّةٍ إلى بعض المال، وأنَّهُ لن يرى وجههُ إلا بعد زمنٍ طويل، تكون فيه أُجرة الأخت قد سَددت السِّلفة.. لكنَّهُ كان يعود ليستلف بعد مُدَّةٍ، وليقول الكلمات نفسها التي قالها في السَّابق، وليرابط أمام الباب ويتوسل، غير عابئ بعمر الصغيرة، الذي يرهنه لأشهرٍ إضافيَّةٍ كل مرَّة[143].

وعند مُقارنة جدَّة اليوشا بيشكوف وأم حنا مينه، من الممكن التوصل إلى عدة مَسائل مُشتركة فيما بينهما: العقل النير، والنباهة الفطرية، والتذوُّق الفني لكل ما هو جميل، وعالم روحيهما وقلبهما الودودين، وحبهما اللامحدود للعالم وللناس وللأطفال.

---

[142] حنا مينه، بقايا صور، دمشق 1975، ص161.

[143] نفس المرجع السابق، ص296.

ويكشف حنا مينه عن المصير الصَّعب لأُمِّهِ التي عاشت حياتها بأكملها في ظُروفٍ صعبةٍ للغاية، لأنَّ الأب لم يهتم مُطلقاً بتربية الأطفال، ولا بتأمين الظُّروف الحياتيَّة المناسبة، ولهذا إن جميع الصعوبات التي اعترضت طريق الأسرة كانت تسقط على كاهل الأُم، الإنسانة الرائعة والضعيفة، ولقد اضطرت أمام الجوع والحرمان أن تعمل خادماً في بيتِ أحدِ الأغنياء، من أجل أن تُطعِم أبناءها الجِّياع، ولكن هذه الظِّروف القاسية لم تضطرها في يومٍ من الأيام، بل كانت عاجزةً عن أن تؤثِّرَ على عالمها الدَّاخلي الروحي، وكانت ثقتها تزداد باستمرار ويتعمق حبها للناس، ورأت في ابنها الأمل الوحيد الذي سينقذها من هذه الآلام والمعاناة التي لا تعدُّ ولا تُحصى.

ومِما ساعد الأم على الصُّمود أمام هذهِ المَصاعب، كان موقف أخيها، فقد كان عاملاً نشيطاً، إذ كان يكدح من الصَّباح الباكر، حتى ساعة متأخرة في المساء، ليس من أجل إطعام أسرتهِ فقط، بل من أجل مُساعدة أختهِ في إطعام أولادها.

وكان مِثال الإنسان، الذي يحب مساعدة الآخرين، - أقرباء كانوا أم غُرباء - وخاصةً يحبُّ مساعدة الأطفال الأيتام، الذين بقوا في الحياة دون أبٍ وأم، إنَّهُ كان يحبُّ مساعدة هؤلاء حتى لو كان أطفاله في عوزٍ للطعامِ والثِّياب، وكان يُدرِكُ أنَّ أطفالهُ سوف يأكلون ويلبسون طالما هو بالقرب منهم، ولكن كيف الأمر بالنسبة للأيتام الجياع.

ويصف الكاتب حنا مينه الخال وصفاً رائعاً يتناسب مع عالمه الإنساني الرَّائع، ويرى فيه شُعاعاً يبعثُ في عالم هذه الأُسرة الفقيرة الدفء والعطف والحنان.
ويبيِّن المؤلف أنَّ هؤلاء الأُناس أمثال الخال قد توصلوا بقدراتهم العقلية والروحية لدرجة عالية من الإدراك: إن العالم هو مستنقع كبير تفوحُ منه رائحة الظلم والاضطهاد والكراهية، ما دام يوجد فيه بقايا للاستعمار والرجعيَّة، ولهذا يهبُّ الخال، وعن وعي للنضال ضد هذه المآسي، ويقف الكاتب حنا مينه موقفاً

إيجابياً من هذه المسألة، ومثله في هذا مثل مكسيم غوركي الذي احتج على كل ما يسيءُ إلى الإنسان ويحطُّ من كرامته الإنسانيَّة. كما يدين الكاتب شتى الأنواع السلبية في الحياة. ويدين التخاذل والاستسلام أمام الصعاب، وينادي بمتابعة النضال والكِفاح، واستيعاب الحياة بكُلِّ أبعادها، والتشبُّع بكل دقائقها، والتنفس بملءِ رِئتيها، حتى يعيش الإنسان هذه الحياة بحُريَّةٍ وكرامة، ولا يأسف عند اقتراب النِّهاية على هذه الحياة التي عاشها، إذ أنها كانت دون فائدةٍ تُرجى.

المواضيع المعاصرة وانعكاسها في الأدب:

ونتيجة تحليل الأدب العربي السُّوري خِلالَ العقدين الخامس والسَّادس من القرن العشرين نتوصل إلى نتيجةٍ مفادها أن هذه الفترة تتسم بإقبالِ الكُتَّاب التقدميين على تحليلِ المواضيع الاجتماعية الهامة والجديدة منها: مسألة النضال الثوري، حياة العمال والفلاحين، قضية المرأة، مسألة المثقفين الثوريين، كما تتسم هذه المرحلة بالدقَّةِ الموضوعيَّة من جانب النُّقاد عند دراسة النتاجات الأدبية الصادرة في الآونة الأخيرة (الربع الثاني والثالث من القرن العشرين) والتركيز على أهم القضايا التي تناولها الكتاب في نتاجاتهم، ومن هؤلاء الكُتَّاب، الذين شغلوا اهتمام النقاد كان حنا مينه، سعيد حورانية، مواهب الكيَّالي في الأدب العربي السوري، وتوفيق الحكيم ونجيب مَحفوظ، وعبد الرَّحمن الشَرقاوي، وعبد الرحمن الخميسي وغيرهم من الكتاب المصريين، بالإضافة إلى الكثير من الكُتَّاب العرب الآخرين أمثال: السَّياب والجواهري ومحمد ديب (الجزائر) وجيلي عبد الرحمن (السودان) وغيرهم.

في هذه المرحلة المشار إليها أعلاه، برزت في الأدب العربي علائِم المدرسة الواقعية الاشتراكية، وحتى بعض مُقومات عِناصرها الأولية: ففي الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين برزت إمكانية إقامة العلاقات الثقافية المباشرة

obeikandl.com

بين الدول العربية من جهة والاتحاد السوفييتي من جهةٍ أُخرى، مما أدى إلى التقارب بين الثقافتين، ونتيجة هذا تمكَّن القُرَّاء العرب أن يتعرفوا على التقاليد العريقة في الأدب الروسي، ويقرأوا أجمل النتاجات الأدبية في الأدب الروسي - السوفييتي، وليس الأدب الروسي فحسب، بل الأدب السوفييتي مُتعدد القوميات. ومن بين هذه النتاجات الأدبية والهامَّة كانت نتاجات ميخائيل شولوخوف «الدون الهادئ»، «الأرض البكر حرثناها»، «مصير إنسان»، و«درب الآلام» لالكسي تولستوي، و«المعلم الأول» و«جميلة»، «وداعاً يا غولساري» للكاتب القرقيزي السوفييتي تشنكيز ايتماتوف، كما تَعرَّفَ القُرَّاء إلى أشعار سيمونوف وميجيلاتيس، ويفتوشينكو وغيرهم من الشُّعراء الروس والسوفييت عامة.

ومن الجدير بالذكر أن ترجمة نتاجات الكُتاب السوفييت إلى اللُّغة العربية، وخاصةً نتاجات ميخائيل شولوخوف قد لعبت دوراً هاماً في تعريف القراء العرب على الكثير من جوانب الحياة الروسية، وكما هو معروف فإنَّ نتاج ميخائيل شولوخوف يُشكِّلُ مدرسة كاملة واضحة المعالم، ولقد أثرت هذه المدرسة تأثيراً بليغاً على الكُتَّاب السوفييت والأجانب بنفس الوقت، ولقد وجد الكُتَّاب العرب في نتاجات ميخائيل شولوخوف مثالاً حيَّاً من الأدب الواقعي الاشتراكي الذي قال عنه مكسيم غوركي: «إن مدرسة الواقعية الاشتراكية، في الوقت الذي تقوم فيه على عكس الأشكال الجديدة للعمل والحياة، نجدها تغوص في أعماق كل جانب من جوانب الحياة، مبينةً الصالح منها والطالح، وتدعم الإيجابي وترفض السَّلبي، وفي هذا بالذات ينحصر التطور اللاحق للاشتراكية[144]».

إن ترجمة نتاجات ميخائيل شولوخوف إلى اللُّغة العربية قد ساهم مساهمةً فعَّالةً في تكون الطرق الفنية التقدميَّة لدى الكثير من الكتاب العرب الشَّباب.

---

[144] فوروبيف ف. ف «مكسيم غوركي عن الواقعية الاشتراكية» موسكو 1970، ص252.

بالطبع إن هؤلاء الكتاب قد استفادوا من تجربة مدرسة الواقعية الاشتراكية في الأدب السوفييتي، ومن الطرق التي عولجت فيها شتى القضايا والمسائل الاجتماعية من أجل عكس المُعضلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تعترض المجتمع العربي المعاصر، مع الأخذ بعين الاعتبار الميزات والخصائص لكل بلدٍ على حِدى، إذ أن ظروف التطور التاريخيَّة تختلف نسبياً من بلدٍ لآخر على الرَّغمِ من العادات والتقاليد المتشابهة في جميع البلدان العربية تقريباً.

وأن ب. ي. بورسوف على حقٍّ عندما يقوِّمُ أهمية مدرسة الواقعية الاشتراكية بالنسبة للآداب العالمية الأُخرى إذ يقول: «إن مدرسة الواقعية الاشتراكية ليست مُلكاً لأدبٍ ما، أو لشعبٍ ما، وإنما هي مكسبٌ من مكاسب الحركة الثورية العالميَّة، والفن التقدمي العالمي، وتتكون هذه المدرسة في كُلِّ بلدٍ يخوض شعبها نضالاً من أجل المثل الإنسانية التقدمية، ولهذا فإنَّ مذهب الواقعية الاشتراكية في عصرنا هو مذهب الآداب العالمية يغني مدرسة الواقعية الاشتراكية بصورٍ وأساليبٍ فنيَّةٍ أدبيةٍ جديدة، ويغنيها بالكثير من الدَّقائق والمِيِّزات القومية الخاصة والمستوحاة من تاريخ وتُراث هذه القومية أو تلك، ولهذا بالذات فإنَّ كلَّ أدبٍ من الآداب العالمية قد يُساهم في تطويرِ هذه المدرسة الأدبية الفنية التي أسسها مكسيم غوركي، وتطورت بسرعةٍ على أيدي الكتاب السوفييت المشاهير[145]».

ومن الجدير بالذكر أن العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الدول العربية من جهة، والاتحاد السوفييتي من جهةٍ أخرى، قد ازدادت عمقاً واتساعاً، فأصبح الاتحاد السوفييتي يترجم من خلالِ دورٍ نشرهُ الكثير من الأعمال الأدبية العربية إلى اللغة الروسية وغيرها من لُغات شعوبِ الاتحاد السوفييتي الكثيرة، كما تُدرَّس اللغة العربية في الكثير من معاهد وكليات

[145] بورسوف، بي، رواية مكسيم غوركي «الأم» وقضايا الواقعية الاشتراكية. لينينغراد 1955، ص226 (باللغة الروسية).

obeikandl.com

جمهوريات الاتحاد السوفييتي، وتحتوي المكتبات السوفييتية المركزية وغيرها من مُستودعات الكتب على الكثير من المخطوطات القديمة والكتب الحديثة في مكتبات موسكو ولينينغراد، طشقند وباكو، ماخاتشكالي وسمرقند وأستانا_

(الما _آتا سابقاً) وغيرها.

ولقد أنجز علماء الاستشراق السوفييت الكثير من النتاجات الأدبية الهامة خلال العقدين الأخيرين، وترجمت الكثير من الأعمال الأدبية العربية إلى اللغة الروسية، منها النثرية، ومنها الشِّعرية بدءاً من الأدب العربي القديم وانتهاءً بنتاجات الكتاب في الوقت الحاضر، والآن من الصَّعب أن يمرَّ شهر دون أن تصدر ترجمة أحد الكتب العربية، وشتى المقالات والدِّراسات، ومن بين الكتب التي ترجمت إلى اللغة الروسية نرى نتاجات الكتاب المصريين التقدميين والجزائريين والسوريين وغيرهم من الكتاب والشُّعراء العرب، وقد ترجمت بعض الروايات إلى اللغة الأوكرانية والبيلوروسية، وإلى لُغات شعوب آسيا الوسطى، وكذلك لغات الشُّعوب القاطنة في جبال القوقاز.

ولقد عملت دور النَّشر، وخاصةً دار (التقدم) من أجل نشر الكتب العربية المترجمة إلى الروسيَّة أو غيرها من لُغات الاتحاد السوفييتي، وقامت (التقدم) خلال العقد الأخير بترجمة عشرات بل مئات النتاجات الأدبية الهامَّة، وهكذا حاز الأدب الروسي _السوفييتي المترجَم على الاهتمام الكبير من جانب الكتاب والقراء والعلماء، والنُّقاد في العالم العربي وغالباً ما نُجري الكثير من النقاشات الأدبية حول ترجمة هذه النتاجات، كما تكتب المقالات النقدية الكثيرة حول هذا النتاج أو ذلك، وكأنَّهُ نتاجُ أحد الكُتَّاب العرب، وبالإضافة إلى الكتب الأدبية الفنيَّة، تترجم إلى اللُّغة العربية عشرات بل مِئات الكتب العلمية في شتى المجالات الاقتصادية والسِّياسية والاجتماعية، كما تترجم الكتب التي تعكس التقدُّم العلمي التكنولوجي في شتى قِطاعات الصناعة الحديثة.

obeikandi.com

ولقد أصبح من الاعتيادي أن تعيش الأوساط الأدبية في العالم العربي «أفراح وأتراح» الأدب العالمي، وعلى وجه الخُصوص الأدب الروسي _السوفييتي، فغالباً ما يحتفل القُرَّاء بظهور الروايات الأدبية الجديدة الهامَّة، كما تحتفل الأوساط الأدبية بالمناسبات اليوبيليَّة للكُتاب الروس المشاهير، وتُقام الأُمسيات الأدبية على شرفهم وهذا ما أَشارَ إليه الكاتب الناقد رئيف خوري، خاصًّاً هذا المسألة بقولهِ: «نتيجة الاهتمام الكبير الذي أولاه القراء والنقاد في جميع أنحاء العالم للأدب الروسي ـ السوفييتي الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع مصالح الشُّعوب وتذهب جذورهُ بعيداً في التاريخ الإنساني، وما إلى ذلك من مَيزاتٍ رائعةٍ، سوف يبقى هذا الأدب شاغلاً مكاناً بارزاً في الأدب العالمي، وفي الوقت، الذي تُعاني فيه الكثير من الآداب العالمية من صعوبة الطباعة والنَّشر والتوزيع، وقلَّةِ عدد النِسخ، نجد أن الأدباء السوفييت يَطبعون عدَّةَ طبعاتٍ وبمئاتِ الأُلوف من النِسخ، حتى أنَّ نِسخ بعض المؤلفين تبلغُ المليون نسخة أو أكثر، وما علينا في هذا المجال إلا أن نستفيد من التجربة الفنية لأدب الواقعيَّةِ الاشتراكية، الذي يثق في المستقبل الأفضل والوضاء للإنسانية[146]».

ومن الميزات الأُخرى الهامَّة، التي لفتت انتباه القراء في العالم، ومن بينهم القراء العرب، تلك الدِّقة في الوصف ووضوح الرؤية لدى الكُتَّاب السوفييت عند تناولهم شتى المواضيع وسعة المعارف المُجسَّدة في النتاجات، زد على ذلك، تلك المرونة والبساطة في اللغة الأدبية الفُصحى، التي يستخدمها الكُتاب السوفييت، ونتيجة هذه النجاحات، التي حققها الأدب السوفييتي تمكَّنَ الكتاب التقدميون في العالم، من السَّير على طريقٍ معبدةٍ في النضال ضد الاتجاهات الشكلية، والرَّمزية المعقدة، وغيرها من الاتجاهات السلبية الانحطاطية، ولم يقتصر هذا التأثير على النثر فقط، بل تعداه إلى مَجال الشِّعرِ أيضاً إذ لعبت

[146] رئيف خوري «عن الأدب السوفييتي المعاصر» مجلة «الثقافة الجديدة»، بيروت 1947، ص38.

obeikandi.com

أشعار ماياكوفسكي، ويسينين وتفاردوفسكي، وسيمونوف، ويفتوشينكو ورسول حمزاتوف، وموسى جليل وغيرهم الكثير، دوراً هاماً في تأسيس وتطور الشِّعر العربي الحديث، وخاصةً على أيدي شعراء الأرض المحتلة أمثال محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، والشُّعراء العرب الآخرين أمثال الجواهري، وشوقي بغدادي، وعبد الرحمن الخميسي، وجيلي عبد الرحمن، وغيرهم، ولقد كتب رئيف خوري موضحاً هذا، وخاصَّاً أحد الشعراء السوفييت قسطنطين سيمونوف يقول: «إن سيمونوف من الشُّعراء السوفييت الذين لعبوا دوراً هاماً في تطوير مدرسة الواقعية الاشتراكية في مجال الشِّعر، ولقد أعار سيمونوف انتباهاً كبيراً لمسألة الوضوح في الشِّعر، والدقَّةِ في الوصف وعكس المواضيع المتناولة من قبله، وانطلاقاً من أن الأديب السوفييتي ـ بغضِّ النظر عن القومية التي ينتمي إليها ـ هو أديب المجتمع، ويكتب ليس لنفسه، بل لِكُلِّ الشَّعب وكان لِزاماً عليه أن يجتهد من أجل أن يكون عملهُ مفهوماً لكل الشَّعب، فالأديب السوفييتي يرفض رفضاً باتاً التعقيد المصطنع في الأدب، ولم يخف يوماً من أن تؤثر قضية الوضوح على عمق المعاني، وقيمة النتاج الأدبي عامة[147]».

وغالباً ما يُحبذ النقاد والأدباء العرب التوقف عند قضية المقارنة بين الأدب السوفييتي والأدب البورجوازي الغربي مبينين ميزات كل منهما، وفي النتيجة يخلصون إلى تحديد موقفهم من الأدب الاشتراكي الواقعي بالانحياز له، ويؤكدون على إعجابهم بمقدرة الأدباء الروس، الذين تمكنوا ببراعة من أن يتخلصوا من المواضيع التقليدية القديمة، ومن تلك التجارب الفاشلة التي ما زال يتخبط فيها الكتاب البرجوازيون، وخاصةً تلك المواضيع ذات الصبغة الأسطوقراطية التي تحتل المكان الرئيسي في عالم الأدب الرأسمالي، هذا ولقد

[147] رئيف خوري «في الأدب» بيروت 1947، 32.

obeikandl.com

تنكر الكتاب الروس _السوفييت، لموضوع التشاؤم الذي يُخيم على معظم النتاجات الغربية، والتردد، والحيرة، والرُّعب والجَزع والتخاذل أمام الصعوبات، وما إلى ذلك من سلبياتٍ تطبع الأدب بطابعها.

ومما تجب الإشارة إليه بشكلٍ خاص، أن الأدب الروسي _السوفييتي المعاصر هو المكمل الطبيعي للأدب الروسي بكل مَراحلهِ، وخاصةً أن الأدباء السوفييت أخذوا كل ما هو جيد وعظيم في الأدب الروسي الكلاسيكي على امتداد القرون الماضية، وخاصةً أدب الكتاب الديمقراطيين الروس في القرن التاسع عشر، كما استفادوا من تجربة الآداب العالمية ككل، ومن الفكر الإنساني بمجمله، ولقد جاء في كلمة التحية التي وجهتها اللِّجنة المركزيَّة للحزب الشيوعي السوفييتي إلى المؤتمر الثاني لاتحاد الكتاب السوفييت ما يلي: «إن الكُتَّاب السوفييت وهم يستخدمون كل ما هو إيجابي في التُراث الأدبي الروسي والأدب الكلاسيكي العالمي، يطوِّرون وبنجاحٍ مذهب الواقعية الاشتراكية، التي أسسها الكاتب البروليتاري العظيم مكسيم غوركي، وهم يسيرون على أثر الشِّعر الروسي الثوري الذي حدد معالمه فلاديمير ماياكوفسكي، إن الواقعية الاشتراكية تتطلب من الفنان أن يعكس الواقع في تطوره الثوري على شكلٍ صحيح، وبدقةٍ تاريخيةٍ، إن الوصول إلى مذهب الواقعيَّة الاشتراكيَّة ـ يعني امتلاك ناصية المعرفة الواسعة عن حياة الناس الحقيقية، وعن مشاعرهم وأفكارهم، وامتلاك المقدرة لعكسها في أروع شكلٍ فني[148]».

ولقد قوَّمَ المؤتمر الثاني لاتحاد الكتاب السوفييت وغيره من المؤتمرات اللاحقة تقويماً إيجابياً، ما تمَّ إنجازهُ وتحقيقهُ خِلالَ مسيرة الأدب السوفييتي القصيرة نسبياً، إذا ما قيست بعمر القرون الماضية، وجاء في التقرير المقدَّم أمام المؤتمر

[148] مواد ووثائق، المؤتمر الثاني لاتحاد الكتاب السوفييت موسكو 1955، ص5.

الثاني ما يلي: «إن الأدب السوفييتي قد حقَّقَ النجاحات الكبيرة في الفترة ما بعد المؤتمر الأول، وحتى انعقاد مؤتمرنا هذا (1934 ـ 1955)، فخلال هذه الفترة نشرَ الكثير من الأعمال الأدبية الفنية الهامة والرَّائعة، وهي تعكس عظمة البناء الاشتراكي، كما تعكس التضحيات الكبيرة، التي قدمها الشَّعب السوفييتي في السنوات القاسية للحرب الوطنية العظمى، وبطولة شعبنا في النضال من أجل تطوير الاقتصاد القومي قبل وبعد الحرب[149]».

ويعتبر المؤتمر الثاني لاتحاد الكتاب الروس والسوفييت، نقطة ارتكازٍ هامةٍ في تطور العلاقات الثقافية بين الدول العربية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، ففي أعمالهِ ساهم عددٌ غير قليل من الكتاب والنقاد العرب أمثال جورج حنا، مواهب الكيالي، حسين مروة وغيرهم في أعمال المؤتمر ، وتعرف هؤلاء على الثروة الثقافية الفنية للاتحاد السوفييتي، وسمعوا الكثير من المحاضرات والتقارير والأحاديث عن تطور هذه الثروة الثقافية، وعن التجارب المتنوعة، التي مرَّت بها، كما أجروا لقاءاتٍ مع كُتَّاب معروفين أمثال فادييف، اهرنبورغ، تيخونوف، فيدين، سوركوف، وغيرهم من الكتاب السوفييت، كما التقوا الكثير من الكتاب المشاهير في الأدب العالمي أمثال بابلو نيرودا، جورج أمادو، لوي أراغون، أرنست همنغواي، وغيرهم كل هذا قد أعطى دعماً قوياً للأدباء العرب الشباب، وزودهم بالكثير من التجارب لمتابعة النضال من أجل تطوير الأدب العربي إلى الأمام حتى يقوم الأدب العربي المعاصر بدوره الهام من أجل عكس المشكلات المعاصرة، وفي طليعتها قضية تحرير الأراضي العربية المحتلة ودحر العدوان الصهيوني ـ الإمبريالي، التي احتلتها اسرائيل في 5حزيران 1967، وتجاهلت وتتجاهل، بل لا تُعير أي اهتمام لقرارات الأمم المتحدة، وقرار مجلس الأمم وغيرها من القرارات التي تُطالب اسرائيل بسحب

---

[149] نفس المصدر السابق.

obeikandi.com

قواتها من جميع الأراضي العربية المحتلة بما في ذلك أراضي من صحراء وسيناء المصرية، والضفة الغربية الفلسطينية، ومرتفعات الجولان السورية، والكثير من القرى اللبنانية، وتستمر إسرائيل في بناء المستوطنات وتعمل على إلغاء اسم فلسطين من تاريخ المنطقة، وتُظهر الخفايا التاريخيَّة الصهيونيَّة لتسمية فلسطين بالدولة اليهودية وهذا دليلٌ جديد على استمرار النزعة العنصرية الصهيونية التي وقعت عليها قيادة الحركة الصهيونية في اتفاقها المصروف مع قيادة النازية الألمانية، الذي كان محوره تنظيم الضغط النازي الألماني على يهود أوروبا الشرقية، لإجبارهم على الهجرة إلى فلسطين، لتجميع أكبر عدد من اليهود في الأراضي الفلسطينية، لاستخدامها في تأسيس دولة وعد بلفور تحت ذريعة إجراء انتخابات مزوَّرة أشرفت عليها بريطانيا الاستعمارية، ولقد لعب كُتَّاب فلسطين وشعرائها وأصبح عددهم كبيراً في العالم، داخل الأراضي المحتلة وفي مقرات هجرتهم، دوراً كبيراً وهامَّاً للغاية من خِلالِ نتاجاتهم الأدبية في توضيح الحقد الفلسطيني بالأرض الفلسطينية، وحق الشَّعب الفلسطيني بتطوير حضارته التاريخية وثقافته العالمية، وهنا لا بد لنا أن نشير إلى الدور البناء الذي لعبه الأدباء الروس والسوفييت تاريخياً، إذ كانت المدرسة الناصرية التي تكلمنا عنها سابقاً أحد المشاعل الثقافية للتعاون الحضاري والثقافي بين روسيا وفلسطين، وأريد أن أشير إلى ناحية علمية وثقافية أن عدد خريجي جامعات ومعاهد روسيا قبل الثورة الاشتراكية وبعدها في أيام الاتحاد السوفيتي يُعدُّ بالآلاف، بعد أن باشرت المدرسة الناصرية بالعشرات في بداية القرن العشرين.